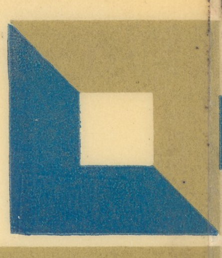
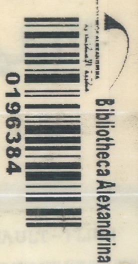


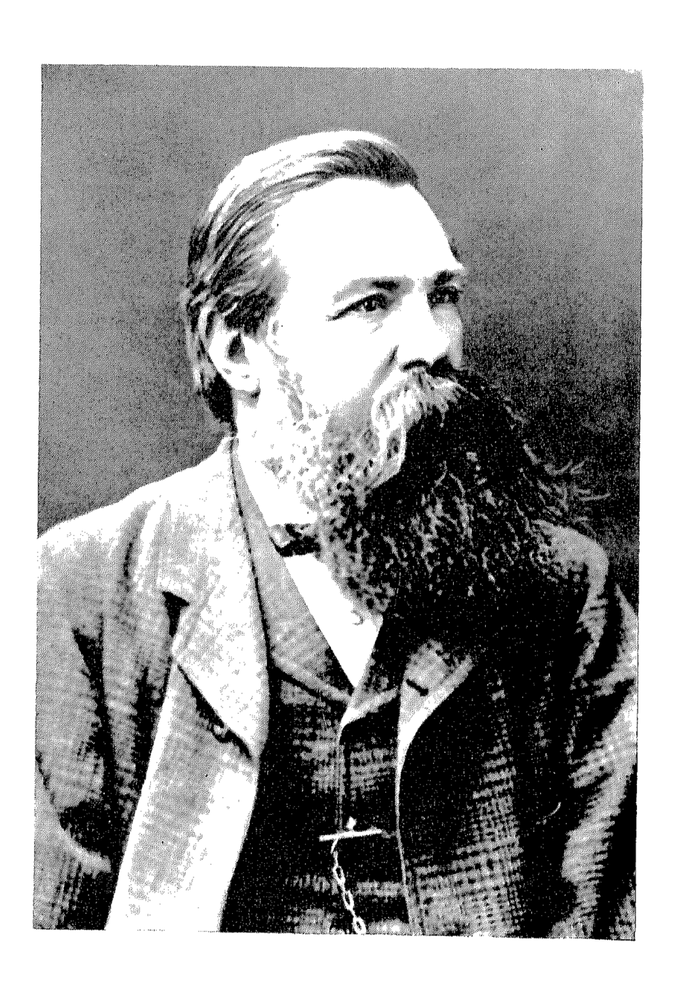
مكتبة الاشتراكية العلمية

انجلس

الاشتراكية الطوباوية و الاشتراكية العلمية







■ مكتبة الاشتراكية العلمية

انجلس

الاشتراكية
الطوباوية
و
الاشتراكية
العلمية

■ دار التقدم
■ موسكو

ترجمة الياس شاهين

Ф. ЭНГЕЛЬС
РАЗВИТИЕ СОЦИАЛИЗМА ОТ УТОПИИ К НАУКЕ
На арабском языке

مقدمة للطبعة الانجليزية عام ١٨٩٢

كان هذا الكراس في البدء جزءاً من مؤلف اكبر . وتحو عام ١٨٧٥ ، اعلن الدكتور اوجين دوهرينغ ، الاستاذ المحاضر في جامعة برلين ، فجاة وبلهجة صارخـــة ، اعتناقه الاشتراكية ، وتقدم من الجمهور الالماني ، لا بنظرية اشتراكية موضوعة بشكل مفصل وحسب ، بل ايضاً بخطة عملية مكتملة لتحويل المجتمع . ومن البديهي انه هاجم اسلافه : وكان ماركس اكثر من استحق بينهم اهتمامه ، فصب عليه كل جام غضبه .

جرى ذلك فور اندماج كتلتي الحزب الاشتراكي في المانيا ، كتلة الايزيناخيين وكتلة اللاساليين (١) ، مما ادى ، بالتالي ، لا الى نمو الحزب عددياً وحسب ، بل ايضـــاً ، وهو الامر الاهم ، الى توفير الامكانية لتوجيه كل قواه ضد العدو المشترك . وكان الحزب الاشتراكي بسبيل ان يصير بسرعة قوة في المانيا . ولكن ، لكي يصير قوة ، كان ينبغي ، قبل كل شيء ، الاّ تتعرض الوحدة المكتسبة حديثاً لاي خطر . بيد ان الدكتور دوهرينغ اخذ يجمع علناً حول شخصه طائفة ، هي نواة حزب انفصالي في المستقبل . فكان لا بد لنا من رد القفاز الذي رمي بوجهنا ، ومن خوض النضال ، شئنـــا أم ابينا .

لم تكن المهمة صعبـــة صعوبة فائقة ، ولكنها كانت طويلـــة النفس . فنحن الالمان ، كمـــا يعرف الجميـــع جيداً ، موصوفون بـ Gründlichkeit ثقيل رهيب ، بعمق فكري او فكر عميق ، كما

يطيب لك ان تسميه . فكلما بدأ احدنا يعرض ما يعتبره هو مذهبا جديداً ، رأى من الضروري ان يضعه ، قبل كل شيء ، في صورة نهج يشمل الكون بأسره . ينبغي له ان يقدم الدليل على ان اسس المنطق الاولى وعلى ان القوانين الاساسية للنظام الكوني لم توجد منذ الازل الاّ لتؤدي الى هذه النظرية المكتشفة حديثاً ، والتي تتوج كل شيء . ومن هذه الناحية ، كان الدكتور دوهرينغ مفصلا تماماً حسب هذا المقياس القومي . فاذا ما ينبغي ان انصرف الى بحثه لا يقل ابداً عن كامل « نظام الفلسفة » ـ فلسفة الروح والاخلاق والطبيعة والتاريخ ، وكامل « نظام الاقتصاد السياسي والاشتراكية » ، واخيراً عن « تاريخ التنقـــادي للاقتصاد السياسي » ، اي ثلاثـــة مجلدات ضخمة من القطع العادي ، ثقيلة الوزن والمحتوى ، ثلاثة جيوش من الحجج المحشودة والمعبأة ضد الفلاسفة والاقتصاديين السابقين بعامة وضد ماركس بخاصة ، اي في الواقع ، محاولة « لقلب العلم » بصورة تامة . كان عليّ ان اتناول جميع المواضيع من كل شاكلة ونوع : من مفاهيم الزمان والمكان حتى نظام المعدنين ، من سرمدية المادة والحركة حتى ما تتصف به افكارنـــا الاخلاقية من قابليـــة للزوال ، من نظرية داروين حول الاصطفاء الطبيعي حتى تربيـــة الشبيبة في المجتمع المقبل . الا ان شمول نهج خصمي اتاح لي ، على كـــل حال ، ان ابدي آراء ماركس وآرائي حول هذا التنوع الكبير من المواضيع واعارض بها آراء خصمي ، وان اعرضها بصورة مترابطة اكثر بكثير مما في الماضي . هذا هو السبب الرئيسي الذي دفعني الى القيام بهذه المهمة المزعجة من جميع النواحي الاخرى .

صدر جوابي اولا في جملـــة من المقالات نشرتهـــا جريدة «Vorwärts» (« فورفارتس ») (٢) في لايبزيغ ، وهي الناطقـــة الرئيسية بلسان الحزب الاشتراكي ، ثـــم في كتاب تحت عنوان : «Herrn Eugen Dühring's Umwälzung der Wissenschaft»

(«السيد اوجين دوهرينــغ يقلب العلم») . وفي ١٨٨٦ ، صدرت منه طبعة ثانية في زوريخ .

وبناء على طلب صديقي بول لافارغ ، وهو الآن نائب مدينة ليل في مجلس النــواب الفرنسي ، اخذت ثلاثــة فصول من هذا الكتاب وجعلت منها كراســاً ترجمه ونشره ، عام ١٨٨٠ ، تحت عنوان «**الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية**» . ثم صدرت ترجمة بولونية وترجمة اسبانية وفقــاً للنص الفرنسي ؛ غير ان اصدقاءنا الالمان اصدروا الكراس بلغته الاصلية عام ١٨٨٣ ؛ ومذ ذاك ، صدرت ترجمات وفقاً لهذا النص الالماني بالايطاليــة والروسية والدانماركية والهولندية والرومانية . وهكذا صدر هذا الكراس بعشر لغات بما في ذلك الطبعة الانجليزية الحالية . وانا لا اعرف اي مؤلف اشتراكي آخر ترجم الى هذا العدد من اللغات ، حتى ولا «البيان الشيوعي» * الذي اصدرناه عام ١٨٤٨ ولا كتاب «رأس المال» لماركس . وفي المانيا ، صدرت منه اربع طبعات ، تعدّ بالاجمال زهاء ٢٠٠٠٠ نسخة .

أن الملحق «المــارك» (٣) قــد كتب بقصد نشر بعض المعلومات الاولية في صفوف الحزب الاشتراكي الالماني عن تاريخ نشوء وتطور ملكية الارض في المانيــا . وفي هذا الوقت كان ذلك ضرورياً خصوصاً لان توحيد العمــال في المدن من قبل الحزب كان في السبيل القويم المؤدي الى انجازه فواجهت الحزب مهمة الاهتمام بالعمــال الزراعيين وبالفلاحين . وقد أُدرج هذا الملحق في هذه الطبعة المترجمة لاعتبارات شتى منها ان الاشكال البدائية لملكية الارض ـ المشتركة عند جميع القبائل الجرمانية ـ وتاريخ تفسخها

---

* راجع **ماركس** ، **انجلس** ، مختارات في اربعة اجزاء ، الجزء الاول ، ص‌ص ٤١ـ٩٦ ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٦٨ . **الناشر** .

معروفة في انجلترا اقل مما في المانيا . وقد تركت النص في صورته الاولية ، دون ان اتناول فيه الفرضية التي تقدم بهـــا مكسيـــم كوفاليفسكي مؤخراً والتي تقول ان تقسيـــم الاراضي المحروثة والاراضي المرجية بين اعضاء المارك قد سبقته العناية المشتركة العامة بها من قبل المشاعة العائلية البطريركية الكبيرة التي تشمل بضعة اجيال (وهذا مـــا يمكن ان تقدم المثال عليه زادروغـــا سلافيي الجنوب التي لا تزال موجودة الآن) ؛ وفيما بعد ، عندما تنامت المشاعة واصبحت مفرطة الضخامة من اجل ادارة الاقتصاد بصورة مشتركة ، جرى تقسيم اراضي المشاعة . ان كوفاليفسكي محق تماماً ، على الارجح ، ولكن المسألة لا تزال sub judice *

ان التعابير الاقتصادية المستعملـــة في هذا الكتاب تنطبق ، بقدر ما هي جديدة ، على تعابير الطبعة الانجليزية لكتاب «رأس المال» لماركس . ونحن نعني «بالانتاج البضاعي» هذه المرحلـــة من التطور الاقتصادي التي لا تنتج فيها المنتجات لتلبية حاجات المنتجين وحسب ، بل ايضاً بقصد التبادل ، اي **بوصفها بضائع** ، لا قيماً استعمالية . وتمتد هذه المرحلة منذ خطوات الانتاج الاولى في سبيل التبادل حتى ايامنا ؛ وهي لا تبلغ ذروة تطورها الا مـــع الانتاج الرأسمالي اي مع الظروف التي يشغل فيهـــا الرأسمالي ، مالك وسائل الانتاج ، عمالا لقاء اجر ، اي اناساً محرومين من كل وسيلة للانتاج باستثناء قوة عملهم ، ـ ويضع في جيبه الفرق بين ثمن مبيع المنتجات ونفقات انتاجها . ونحن نقسم تاريخ الانتاج الصناعي ، منذ القرون الوسطى ، الى عهود ثلاثة : ١ ـ الصناعـــة الحرفية ، وتشمل معلمين حرفيين صغاراً ، يعاونهم عدد صغير من الصناع والمتدربين ، وحيث يصنع كل عامل السلعة بكاملهـــا .

---

* ـ قيد البحث . **الناشر** .

٢ ــ المانيفاكتورة ، وتجمع عدداً اكبر من العمال في مؤسسة كبيرة ، فيصنعون السلعة بكاملها وفقاً لمبدأ تقسيم العمل ، اي ان كل عامل لا يقوم الا بعملية جزئية ، بشكل لا تنتهي معه السلعة الا بعد مرورها على التوالي في ايدي الجميع . ٣ ــ الصناعة العصرية ، حيث تصنع المنتوج آلات تحركها قوة ما ، وحيث يقتصر دور العامل على مراقبة عمل الآلات وضبطها .

واني اعرف تمام المعرفة ان قسماً كبيراً من القرآء الانجليز لن يستقبل مضمون هذا الكتاب بالترحاب . ولكن ، لو كنا ، نحن القاريين ، اعرنا اقل اهتمام لاوهام «الاحترامية» البريطانية ، لكنا نعاني وضعاً شراً من الوضع الذي نعانيه الآن . فان هذا الكتاب موضوع دفاعاً عما نسميه «المادية التاريخية» ، وكلمة «مادية» تخدش آذان الاغلبية الساحقة من القراء الانجليز . فهم يعتبرون انه يمكنهم التساهل ازاء agnosticisme «العجزية» (٤) ولكنه لا يجوز اطلاقاً القبول بالمادية .

هذا في حين ان انجلترا بالذات كانت ، ابتداء من القرن السابع عشر ، مهد المادية العصرية كلها .

«المادية هي الابنة الطبيعية لبريطانيا العظمى . فقد سبق لاحد اقطابها في الفلسفة الكلامية (٥) ، دونس سكوت ، ان تساءل ما اذا كان بوسع المادة ان تفكر .

ولاجل تحقيق هذه المعجزة ، لجأ الى الله الكلي الجبروت ، اي انه اكره اللاهوت (٦) ذاته على الدعوة للمادية . وكان ، من جهة اخرى ، من انصار مذهب الاسمية (٧) . ومذهب الاسمية كان احد العناصر الرئيسية عند الماديين الانجليز ، وهو ، على العموم ، الشكل الاول من اشكال المادية .

اما الاب الحقيقي للمادية الانجليزية فهو باكون . وهو يعتبر ان علم الطبيعة هو العلم الصحيح الوحيد ؛ والفيزياء القائمة على

تجربة الحواس ، هي القسم الاهم من علم الطبيعة . وانكساغورآس واصوله المتماثلة (٨) وديموكريتس وذراته هما مرجعاه المفضلان . والحواس في مذهبه معصومة عن الخطأ ، وهي ينبوع كل معرفة . والعلم علم تجريبي ، ووظيفته اخضاع معطيات الحواس لطريقة عقلانية . والاستقراء ، والتحليل ، والمقارنة ، والملاحظة ، والاختبار ، كلها هي الشروط الرئيسية للطريقة العقلانية . آن الخاصة الاولى الرئيسية من الخصائص الملازمة في الاصل للمادة هي الحركة ، لا من حيث انها حركة آلية ورياضية وحسب ، بل من حيث انها ايضاً ، وبخاصة ، اندفاع ، ومبدأ حياة ، وتوتر ، و«عذاب» («Qual»)* المادة ، على حد قول يعقوب بوهم .

ثم ان المادية عند باكون ، مبدعها الاول ، تنطوي ايضاً ، بصورة ساذجة ، على بذور تطور شامل . والمادة تبتسم للانسان كله بروعتها الحسية والشعرية . اما المذهب نفسه المعروض بشكل حِكَم موجزة ، فهو ، بالعكس ، لا يزال يزخر بالمتناقضات اللاهوتية .

وقد غدت المادية وحيدة الطرف ، خلال تطورها . وجعل هوبس من المادية الباكونية نهجاً متناسقاً . وفقدت الحسية الوانها الزاهية وغدت مجرد حسية المهندس . واعلنت الهندسة العلم الاول بين العلوم . وامست المادية معادية للانسان ؛ فاذا شاءت ان تقهر الروح بلا جسد المعادية للانسان في ميدانها نفسه ، ترتب

---

* «Qual» ــ هذا تلاعب فلسفي بالكلام . فان «Qual» تعني حرفيا العذاب ، الألم الذي يدفع الى القيام بعمل ما ؛ وفي الوقت نفسه ، يضمّن الصوفي بوهم هذه الكلمة الالمانية شيئا ما من الكلمة اللاتينية qualitas (الصفة) . فان «Qual» بوهم انما هو ، خلافا للألم الناجم عن سبب خارجي ، مبدأ فعّال ينبثق من التطور التلقائي لشيء او علاقة او شخصية تكابد «Qual» وتثير بدورها هذا التطور .

عليها ان تقهر جسدها بالذات وان تصير ناسكة . وبدت المادية كائناً من عقل ، ولكنها طورت ، في الوقت نفسه ، كل استنتاجات العقل بانسجام ، دون اي وخز في الضمير ، دون تشكك .

واستناداً الى باكون ، عرض هوبس الفكرة التالية : اذا كانت حواسنا هي مصدر كل معارفنا ، فليست المفاهيم ، الافكار ، التصورات ، الخ ، سوى اشباح العالم المادي المجرد ، بدرجات متفاوتة ، من شكله الحسي . ولا يسع العلم الا ان يسمي هذه الاشباح . ويمكن اطلاق اسم واحد على اشباح كثيرة . وقد تكون ثمة أيضاً اسماء اسماء . ولكنه من التناقض ان نقر ، من جهة ، بان جميع الافكار تنبع من العالم المحسوس ، وان تؤكد ، من جهة اخرى ، ان الكلمة هي اكثر من كلمة ؛ وانه توجد ايضاً كائنات عامة فضلا عن الكائنات التي نتصورها دائماً كائنات فردية . ان القول باصل غير جسمي اخرق كما هو عليه القول بجسم غير جسمي . الجسم ، الكائن ، الجذل ، ان هذه التعابير ليست سوى تعابير مختلفة لنفس الواقع الواحد . **ولا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة** . ان المادة هي قوام * جميع التغيرات التي تحدث . وكلمة لامتناه لا معنى لها اذا كانت لا تعني قدرة روحنا على الاضافة بلا نهاية الى مقدار ما معين . وبما ان حواسنا لا تحس غير الاشياء المادية ، فاننا لا نعرف شيئاً عن وجود الله . فقط وجودي أنا اكيد ، ثابت . وكل هوى انساني هو حركة آلية ، تبدأ او تنتهي . واغراض البواعث هي الخير . والانسان خاضع لنفس القوانين التي تخضع لها الطبيعة . والقوة والحرية متماثلتان .

لقد جعل هوبس من الباكونية نهجاً متناسقاً ، ولكنه لم يقدم ادلة ادق لدعم مبدئه الاساسي القائل ان اصل المعارف والافكار

---

* اصل ، جذل substantia . **المعرب**..

هو في عالم الحواس . فجاء لوك وقدم الادلة لدعم مبدأ باكون وهوبس في مؤلفه حول اصل الادراك البشري .

واذا كان هوبس قد حطم تحطيماً ما تخلل مادية باكون من اوهام تتعلق بالاعتقاد بالتأليه الشخصي (٩) ، فان كولينز ، ودودويل ، وكاوارد ، وهارتلي ، وبريستلي وغيرهم قد هدموا الحدود اللاهوتية الاخيرة في مذهب الحاسيين كما نادى به لوك . وفي كل حال ، ليس التأليه السببي (١٠) بنظر المادي ، سوى طريقة ملائمة ، سهلة ، للتخلص من الدين» (١١) .

هذا ما كتبه كارل ماركس بصدد منشأ المادية العصرية البريطاني . فاذا كان انجليز اليوم غير مسرورين بخاصة من هذا الاعتراف بمآثر اجدادهم ، فهذا شأنهم ، ويا حيفهم ! غير انه ما يزال من الثابت مع ذلك ان باكون وهوبس ولوك كانوا آباء هذه المدرسة الرائعة من الماديين الفرنسيين الذين ، رغم ما احرزه الالمان والانجليز من انتصارات على الفرنسيين في البر والبحر ، جعلوا من القرن الثامن عشر القرن الفرنسي على الاغلب ، وذلك قبل تتوج نهايته بالثورة الفرنسية بزمن طويل ، بهذه الثورة التي لا نزال نحاول ان نكيف نتائجها ، ان نبلدها في انجلترا والمانيا .

وليس لنا ان ننكر هذا . ان الاجنبي المثقف الذي كان يختار محل اقامته في انجلترا ، في منتصف قرننا ، كانت تتملكه الدهشة اشد ما يتملكه ــ ولم يكن من الممكن ان يشعر بشعور آخر ــ امام حماقة الطبقة المتوسطة الانجليزية «المحترمة» وامام تظاهرها بالتقوى والتدين . في ذلك العهد ، كنا جميعاً ماديين او ، على الاقل ، مفكرين احراراً جد متقدمين ، وكان من غير المعقول بنظرنا ان يصدق تقريباً جميع الناس المتعلمين في انجلترا شتى انواع المعجزات المستحيلة ، او حتى ان يقدم الجيولوجيون ، مثل باكلاند

ومانتل ، على تشويه معطيات علمهما لكي لا تأتي متناقضة الى درجة كبيرة جداً مع سفر التكوين . كان يبدو من غير المعقول انه ينبغي المضي الى الاميين ، او «الجماهير القذرة» ، كما كانوا يقولون آنذاك ، الى العمال وبخاصة الى الاشتراكيين ، اتباع اوين ، من اجل ايجاد اناس يجرؤون على الاستناد الى ادراكهم بالذات في مسائل الدين .

ولكن انجلترا «تمدنت» مذ ذاك . فان معرض ١٨٥١ دق جرس نعي عزلتها الجزائرية (١٢) . فقد غدت تدريجياً اممية من حيث الغذاء والسلوك والافكار ، الى حد اني ارغب اكثر فاكثر في ان تنتقل بعض العادات وطرائق السلوك الانجليزية الى القارة وتطبق فيها بصورة شاملة كما طبقت بعض العادات القارّية في انجلترا . هناك امر واحد لا ريب فيه ، هو ان نشر زيت الزيتون (الذي كانت تعرفه الاريستقراطية وحدها قبل ١٨٥١) قد صحبه بصورة لا مناص منها انتشار التشكك القارّي في مسائل الدين ؛ وقد بلغ الامر الى حد ان تقف العجزية ، فيما يتعلق بالاحترامية ، في نفس مستوى شيعة المعمودية تقريباً وفوق «جيش الخلاص» (١٣) بلا جدال ، وذلك رغم انها لا تعتبر بعد «شيئاً ممتازاً» مثلما هي عليه كنيسة الدولة الانجليزية . واني لا استطيع ان امنع نفسي عن التفكير في ان الكثيرين ممن تنعصر قلوبهم حزناً وأسفاً بصدد التقدم الذي احرزه الجحود ويلعنونه ، سيجدون العزاء اذا ما علموا أن هذه «المفاهيم الحديثة» ليست اجنبية المنشأ ولا تحمل ماركة made in Germany * كما هو عليه الكثير من حاجيات الاستعمال اليومي ، بل انها انجليزية الاصل الى اعمق حد ، وان البريطانيين الذين وضعوها كانوا ، منذ مائتي سنة ، يمضون حقاً الى ابعد بكثير مما يجرؤ عليه خلفاؤهم اليوم .

---

* ـ من صنع المانيا . الناشر .

وبالفعل ، ما هي العجزية ان لم تكن مادية «خجلة» ، اذا استعملنا كلمة لنكشيرية بليغة التعبير ؟ فمفهوم العجزي عن الطبيعة مادي بكليته . فالعالم الطبيعي كله تحكمه قوانين ولا يقرّ بتدخل اي فعل خارجي . ولكن العجزي يضيف قائلا : نحن لا نملك الوسيلة التي تتيح لنا ان نؤكد او ان ندحض وجود كائن ما اعلى ما وراء الكون المعروف . من الممكن انه كانت لهذا القول قيمة مـــا في العهد الذي رد فيه الفلكي العظيم لابلاس باعتزاز على نابوليون حين سأله لماذا لم يذكر اسم خالق العالم في كتابه «الميكانيك السماوي» (١٤) «Je n'avais pas besoin de cette hypothèse» * . غير انه لم يبق ثمة مكان اليوم ، اطلاقاً ، لخالق او لمنظـــم ، نظراً لمفهومنا عن تطور الكون . فان القول بكائن اسمى ، واقف خارج الكون الموجود كله ، هو بحد نفسه تناقض ، ناهيك عن انه يبدو لي بمثابة اهانة بدون داع لمشاعر المؤمنين .

ان صاحبنا العجزي يقر ايضاً بان معرفتنا كلها تقوم على اساس المعطيات التي تقدمهـــا حواسنا ؛ ولكنه يضيف : من اين نعرف ان حواسنا تقدم لنـــا صوراً صحيحة عن الاشيـــاء التي تحسها ؟ ويواصل قوله ويبلغنا انه ، حين يتحدث عن الاشياء او صفاتها ، لا يقصد في الواقع هذه الاشياء او صفاتها التي لا يمكنه ان يعرف اي امر ثابت ، اكيد عنها ، انما يقصد فقط انطباعاتها على حواسه . لا ريب ان هذه وجهة نظر من الصعب ، على مـــا يبدو ، دحضها بالحجج وحدها . ولكن قبل ان بدأ الناس بتقديم الحجج كانوا يعملون «In Anfang war die That» ** . وقد حل

---

* ــ «لم اكن بحاجة الى هذه الفرضية» . **الناشر** .

** ــ «في البدء كان العمل» . (**غوته** . «فاوست» . القسم الاول المشهد الثالث («مكتب فاوست»)) . **الناشر** .

العمل الانساني هذه الصعوبة قبل ان يختلقها التفلسف الانساني بزمن طويل . البرهان على وجود الكعكة في أكلها . ففي اللحظة التي نستعمل فيها شيئاً ما لانفسنا وفقاً للصفات التي نحسها فيه ـ في هذه اللحظة بالذات نمتحن امتحاناً لا خطأ فيه ، صحة او عدم صحة احساساتنا الحسية . فاذا كانت هذه الاحساسات خاطئة ، كان رأينا في امكانية استعمال الشيء المعني خاطئاً ايضاً ؛ وكان لا بد من ان تؤدي كل محاولة لمثل هذا الاستعمال الى الاخفاق . ولكن ، اذا نجحنا في بلوغ هدفنا ، اذا تبين لنا ان الشيء ينطبق على فكرتنا عنه وانه يعطي النتيجة التي توقعناها من استعماله ، كان ذلك الدليل الايجابي على ان احساساتنا بالشيء وصفاته تنطبق **ضمن هذه الحدود** على الواقع القائم خارجاً عنا . وحين نرى ، بالعكس ، اننا اخطأنا ، فاننا نعرف ، بعد وقت قصير على الاغلب ، كيف نكتشف سبب هذا الخطأ ؛ فنجد ان الاحساس الذي كان اساس امتحاننا ، اما انه كان بحد نفسه سطحياً وغير كامل ، واما انه كان مرتبطاً بنتائج احساسات اخرى على نحو لا يبرره الواقع ؛ وهذا ما نسميه بالقياس الفاسد . وما دمنا نطور حواسنا ونستخدمها على نحو صحيح ، وما دمنا نحصر نشاطنا في الحدود التي رسمتها احساساتنا الحاصلة والمستخدمة على نحو صحيح ، فاننا سنجد دائماً ان نجاح اعمالنا يقدم البرهان على تطابق احساساتنا مع الطبيعة الموضوعية للاشياء المحسوسة . وحسب معرفتنا حتى الآن ، لم يحدث مرة ان ترتب علينا ان نستنتج ان احساساتنا الحسية ، المراقبة علمياً ، تولد في عقلنا افكاراً عن العالم الخارجي تحيد بحكم طبيعتها عن الواقع ، او ان تنافراً لازباً يقوم بين العالم الخارجي واحساساتنا الحسية به .

والآن ، يطل العجزي الكانطي الجديد ويقول : من الممكن اننا نستطيع ان نحسّ على نحو صحيح صفات شيء من الاشياء ،

ولكننا لا نستطيع ، باي اسلوب حسي او ذهني ، ان نعرف الشيء بحد ذاته . ان هذا «الشيء بذاته» يقع خارج معرفتنا . وقد اجاب هيغل على هذا القول منذ زمن بعيد : اذا كنت تعرف جميع صفات شيء من الاشياء ، عرفت الشيء ذاته ؛ ولا يبقى من ثم الا مجرد واقع ان الشيء المذكور موجود خارج عنك ، وحين تثبت حواسك هذا الواقع ، تدرك كلياً وتماماً هذا «الشيء بذاته» ، هذا «Ding an sich» المجهول الشهير الذي قال به كانط . ولا يسعنا في الوقت الحاضر الا ان نضيف الى ذلك ان معرفتنا للاشياء الطبيعية كانت في زمن كانط غير متصلة الى حد انه كان بالامكان افتراض وجود «شيء بذاته» خفي خاص ، ما وراء القليل مما كنا نعرفه عن كل من هذه الاشياء . ولكن هذه الاشياء التي لا يمكن ادراكها قد ادركت ، منذ ذلك الحين ، الواحد بعد الآخر ، وحللت ، بل **تم صنعها** ايضاً ، وكل ذلك بفضل منجزات العلم الجبارة . فان ما نستطيع صنعه بانفسنا ، لا نستطيع ، بالطبع ، القول عنه انه يستحيل ادراكه . فالمواد العضوية مثلا كانت من هذه الاشياء الخفية بالنسبة لكيمياء النصف الاول من قرننا ؛ اما اليوم ، فيتسنى لنا ان نركبها اصطناعياً الواحدة بعد الاخرى ، من عناصرها الكيميائية دون وساطة اية عملية عضوية . ويؤكد الكيميائيون المعاصرون انه ، متى عرف التركيب الكيميائي لاي من الاجسام ، امكن تركيبه من عناصره . صحيح اننا ما نزال بعيدين جداً عن المعرفة الدقيقة لتركيب المواد العضوية العليا ، ونعني بها الاجسام الآحينية ؛ ولكن ، ليس ثمة ما يدعو الى الاعتقاد اننا لن نستطيع بلوغ هذه المعرفة ، بعد قرون وقرون ، واننا لن نستطيع بواسطة هذه المعرفة انتاج الآحين الاصطناعي . وحين نبلغ هذه النتيجة نكون قد صنعنا الحياة العضوية ، لان الحياة ، من ابسط اشكالها حتى اعلاها ، ليست سوى الطريقة العادية لكينونة الاجسام الآحينية .

ولكن ، ما ان يبدي صاحبنا العجزي تحفظاته الشكلية ، حتى يتكلم ويتصرف كاعرق الماديين ، كما هو في جوهر الامر . فقد يقول : نظراً لما نعرف **نحن** ، لا يمكن خلق المادة والحركة ـ او الطاقة كما يقال في الوقت الحاضر ـ ولا يمكن ابادتهما ، بيد انه ليس لنا اي دليل على انهما لم تخلقا في وقت من الاوقات نَجهله نحن . ولكن اذا حاولت ان توجه هذا الاعتراف ضده ، في حالة خاصة ما من الحالات ، عجل في ختم المناقشة . واذا اقر بامكان الروحانية (١٥) in abstracto * ، رفض الاقرار او التحدث بوجودها in concreto ** . وقال لك : حسب ما نعرف وما نستطيع ان نعرف ، ليس ثمة خالق او منظم للكون ؛ وحسب ما نعرف نحن ، لا يمكن كذلك لا خلق المادة والطاقة ولا ابادتهما ؛ وما الفكر ، بنظرنا ، الا شكل من اشكال الطاقة ، ووظيفة من وظائف الدماغ ، وكل ما نعرفه ، هو ان العالم المادي تحكمه قوانين ثابتة ، وهكذا دواليك . فهو اذن مادي ، بوصفه رجل علم ، بوصفه يعرف شيئاً ما ، ولكنه ، خارج علمه ، اي في الميادين التي لا يعرف فيها شيئاً ، يترجم جهله الى اليونانية ويسميه agnosticisme (العجزية) .

وفي كل حال ، ثمة امر واحد لا ريب فيه : اني ، حتى ولو كنت عجزياً ، لما استطعت ان اطلق على المفهوم الوارد في هذا الكراس عن التاريخ ، اسم «العجزية التاريخية» . فان الناس المتدينين سيسخرون مني ، ويسألني العجزيون باستياء اذا كنت اريد الاستهزاء بهم . ولذا آمل الا تستاء الاحترامية الانجليزية خارق الاستياء اذا ما استعملت باللغة الانجليزية تعبير «المادية التاريخية» كما افعل في لغات اخرى كثيرة ، لكي اعني مفهوماً

---

* ـ بصورة مجردة . **الناشر** .

** ـ بصورة ملموسة ، عملياً . **الناشر** .

عن مجرى التاريخ العالمي يرى السبب الاول والقوة المحركة الحاسمة لجميع الاحداث التاريخية الهامة في تطور المجتمع الاقتصادي ، في تغيرات اسلوب الانتاج والتبادل ، في انقسام المجتمع الى طبقات مختلفة من جراء ذلك ، في الصراع بين هذه الطبقات .

ولربما القى مزيداً من التساهل اذا ما برهنت ان المادية التاريخية تستطيع ان تفيد حتى الاحترامية البريطانية . ولقد سبق لى ان اشرت الى واقع ان الاجنبي المثقف الذي كان ، لنحو اربعين او خمسين سنة خلت ، ينتقل الى انجلترا ليقيم فيها ، كان يترك في نفسه اثراً غير مستطاب ما كان لا بد ان يبدو له من جانب الطبقة المتوسطة المحترمة الانجليزية تظاهراً بالتقوى او حماقة . ولكني سأبين الآن ان الطبقة المتوسطة الانجليزية المحترمة لم تكن في ذلك العهد حمقاء بالقدر الذي كانت تبدو فيه للمثقف الاجنبي . فلنزعات هذه الطبقة الدينية تفسيرها .

عندما خرجت اوروبا من القرون الوسطى ، كانت الطبقة المتوسطة النامية في المدن تشكل العنصر الثوري في هذه القرون . فان الوضع المعترف به الذي كانت هذه الطبقة قد اكتسبته في النظام الاقطاعي في القرون الوسطى ، غدا ضيقاً جداً لقدرتها على التوسع . وقد اصبح تطور الطبقة المتوسطة ، تطور **البرجوازية** ، غير متلائم مع النظام الاقطاعي ، ولذا كان لا بد ان يسقط النظام الاقطاعي .

ولكن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية كانت مركز الاقطاعية العالمي الكبير . فرغم جميع الحروب الداخلية ، كانت تضم اوروبا الغربية الاقطاعية كلها في كل سياسي كبير ، مضاد لعالم الروم الارثوذكسيين المنشقين وللعالم الاسلامي على السواء . وقد توجت النظام الاقطاعي بهالة من النعمة الالهية . ووضعت تسلسل المراتب

الكهنوتية وفقاً للنموذج الاقطاعي ، وكانت اخيراً اكبر سيد اقطاعي ، لانها كانت تملك ما لا يقل عن ثلث الاراضي في البلدان الكاثوليكية . وقبل شن النضال الناجح ضد الاقطاعية الزمنيـــة في كل بلد وفي مختلف مجالاتها ، كان ينبغي تحطيم منظمتها المركزية المقدسة هذه .

والى جانب نمو الطبقة المتوسطة ، كان العلم يتطور بخطى العمالقة . ومن جديد ، عني بدراســة علم الفلك ، والميكانيك ، والفيزياء ، وعلم التشريح ، والفيزيولوجيا . وقد كانت البرجوازية ، لاجل تطوير صناعتها ، بحاجة الى علم يبحث في خصائص الاجسام الطبيعية ومظاهر فعل قوى الطبيعة . وحتى ذلك الحين ، كان العلم خادم الكنيسة الوضيع ، كما ان الكنيسة لم تسمح له اطلاقاً بتخطي الحدود التي رسمها الدين ؛ ولهذا السبب كان العلم اي شيء تشاء ، الا انه لم يكن علماً . اما الآن فقد ثار العلم على الكنيسة ؛ ولمـــا كانت البرجوازية بحاجة الى العلم ، فقد اشتركت في هذه الثورة .

وهكذا ، لم اتناول الا نقطتين من النقـــاط التي كان لا بد للطبقة المتوسطة النامية من ان تصطدم عندها بالكنيسة القائمة . الا ان ذلك سيكون كافياً للبرهان ، اولا ، على ان هذه الطبقة بالذات ونعني بها البرجوازية كانت تشترك ، بصورة انشط من غيرها ، في النضال ضد مطامع الكنيسة الكاثوليكية ، وللبرهان ، ثانياً ، على ان كل نضال ضد الاقطاعيـــة كان لا بد له ان يرتدي في ذلك العهد لباساً دينياً ، وكان لا بد ان يتجه ضد الكنيسة بالدرجة الاولى . ولكن اذا كان النداء الكفاحي قد ارتفع من الجامعات ومن التجار واصحاب الاعمال في المدن ، فقد كان يلاقي ، حتماً ، صدى قوياً بين جماهير سكان الريف ، بين الفلاحين ، الذين كانوا في كل مكان يخوضون نضالا ضارياً ضد اقطاعييهم الروحيين والزمنيين ، ناهيك عن انه كان نضالا من اجل البقاء بالذات .

وقد بلغ نضال البرجوازية الاوروبية الطويل ضد الاقطاعية ذروته في ثلاث من المعارك الكبيرة الحاسمة .

المعركة الاولى هي ما يسمى بالاصلاح البروتستانتي في المانيا . فاستجابة لدعوة لوتر الى النضال ضد الكنيسة ، شبت انتفاضتان سياسيتان : في البدء انتفاضة النبلاء الصغار بقيادة فرانتس فون زيكينغن (عام ١٥٢٣) ثم حرب الفلاحين الكبيرة عام ١٥٢٥ . وقد قُمعت الانتفاضتان ، خصوصاً من جراء تذبذب برجوازية المدن ، اي الحزب الذي كانت له المصلحة الكبرى فيهما ؛ وليس بوسعنا ان نبحث هنا اسباب هذا التذبذب . ومذ ذاك ، تحول النضال الى عراك بين الامراء المحليين والسلطة المركزية ، وانتهى بامحاء المانيا ، طوال قرنين ، من بين الامم الاوروبية التي تضطلع بدور سياسي نشيط . بيد ان الاصلاح اللوتري اقام فيها مع ذلك ديناً جديداً ، هو بالذات ذلك الدين الذي كانت الملكية المطلقة بحاجة اليه . ولم يعتنق الفلاحون في شمال شرقي المانيا اللوترية حتى تحولوا من اناس احرار الى اقنان .

ولكن كالفن احرز النصر حيث اخفق لوتر . فان عقيدة كالفن كانت تستجيب لمطالب القسم الاكثر جرأة من البرجوازية في ذلك العهد . فان مذهبه القائل بالقضاء والقدر كان التعبير الديني لكون النجاح والافلاس في عالم التجارة والمزاحمة لا ينجمان عن نشاط الافراد او مهارتهم ، بل عن ظروف مستقلة عنهم . والشيء المحدِّد ليس ارادة او فعل اي فرد ، انما رحمة قوى اقتصادية جبارة الا انها مجهولة . وقد كان ذلك صحيحاً بخاصة في زمن الانقلاب الاقتصادي ، حين كانت جميع الطرق التجارية القديمة والمراكز التجارية القديمة تزيحها طرق ومراكز جديدة ، وحين اكتشفت اميركا والهند ، وحين تداعى وانهار حتى اقدس رمز اقتصادي للايمان — ونعني به قيمة كل من الذهب والفضة . وبالاضافة الى

ذلك كانت بنية كنيسة كالفن ديموقراطية وجمهورية اطلاقاً ؛ وحيث اضفي على مملكة الله طابع جمهوري ، هل كان ثمة بالامكان ان تبقى ممالك الارض امينة للملوك والاساقفة والاقطاعيين ؟ وحين اصبحت اللوترية في المانيا اداة طيعة في ايدي الامراء ، اسست الكالفنية جمهورية في هولندا واحزاباً جمهورية نشيطة في انجلترا ولا سيما في اسكتلنده .

ان الانتفاضة الكبرى الثانية التي قامت بها البرجوازية وجدت في الكالفنية مذهباً كفاحياً جاهزاً . وقد جرت هذه الانتفاضة في انجلترا . وكانت الطبقة المتوسطة في المدن اول من اندفع فيها ، وقد انتصرت هذه الانتفاضة بفضل اشتراك الفلاحين المتوسطين في المناطق الريفية . ومن الطريف ان الفلاحين كانوا الجيش المقاتل في الانتفاضات البرجوازية الثلاث الكبرى جميعها ، وانهم هم بالذات كانوا الطبقة التي كانت تصاب حتماً بالخراب والدمار ، بعد الانتصار الذي ظفرت به ، من جراء عواقب هذا الانتصار الاقتصادية . وقد زال الفلاحون المتوسطون الانجليز كلياً تقريباً بعد كرومويل بقرن واحد . ولكن ، لولا تدخل هؤلاء الفلاحين المتوسطين وعنصر **العامة** في المدن ، لما امكن السير بالنضال الى نهايته الاخيرة الحاسمة ولما اعدم شارل الاول ، على المقصلة ، الامر الذي لم يكن بوسع البرجوازية وحدها القيام به يوماً . ولكي تستطيع البرجوازية ان تحصل ولو على ثمار الانتصار التي كانت آنذاك ناضجة تماماً لقطفها — كان ينبغي ان تتخطى الثورة هذا الهدف الى حد كبير ؛ تماماً كما في فرنسا عام ١٧٩٣ ، وفي المانيا عام ١٨٤٨ . ويبدو ان في هذا ، في الواقع ، قانوناً من قوانين تطور المجتمع البرجوازي.

وكان لا بد لهذا الغلو في النشاط الثوري ان تعقبه ردة رجعية تجاوزت بدورها النقطة التي لم يكن بوسعها هي ان تبقى وراءها . وبعد جملة من الذبذبات ، استقر اخيراً مركز الثقل الجديد ، وغدا

هذا المركز نقطة انطلاق للتطور اللاحق . وانتهت المرحلة الرائعة في التاريخ الانجليزي التي اطلقت الاحترامية عليها اسم «العصيان الكبير» والمعارك التي عقبته ، بحدث حقير نسبياً وقع في ١٦٨٩ ، ويسميه المؤرخون الليبراليون بـ «الثورة المجيدة» (١٦) .

كانت نقطة الانطلاق الجديدة مساومة بين الطبقة المتوسطة النامية وبين كبار ملاكي الاراضي الاقطاعيين السابقين . ان هؤلاء الملاكين ، الذين ما يزال يطلق عليهم اليوم كما بالامس اسم الاريستقراطية ، كانوا منذ وقت طويل بسبيل ان يصبحوا ما لم يصبحه لويس فيليب في فرنسا الا بعد مرور حقبة طويلة من الزمن، اي «البرجوازي الاول في المملكة» . ولحسن حظ انجلترا ان البارونات الاقطاعيين القدماء قد تذابحوا خلال حرب الوردتين (١٧) . اما اخلافهم ، الذين انحدروا بعامة من هذه الاسر القديمة، فان فروعهم قد ابتعدت ، مع ذلك ، عن الاصل الى حد انهم شكلوا فئة جديدة تماماً ؛ وكانت عاداتهم ومطامحهم برجوازية اكثر بكثير مما هي اقطاعية . كانوا يعرفون تمام المعرفة قيمة المال فشرعوا فوراً في زيادة الريع العقاري ، طاردين المئات من صغار المستأجرين من الارض ، ومستعيضين عنهم بالاغنام . ثم ان هنري الثامن خلق طائفة واسعة جداً من اسياد الاراضي الجدد من بين البرجوازيين عن طريق توزيع املاك الكنيسة بسخاء او بيعها بثمن بخس ؛ والى نفس النتيجة ادت المصادرات التي لا عد لها للاملاك الكبيرة والتي استمرت حتى نهاية القرن السابع عشر ، وكانت هذه الاملاك تعطى من جديد لحديثي النعمة ، من كل شاكلة وطراز ، بمعنى هذه الكلمة المباشر او المجازي . ولذا ، لم تعارض «الاريستقراطية» الانجليزية ، منذ عهد هنري السابع ، تطور الانتاج الصناعي ، بل سعت بالعكس الى الاستفادة منه بصورة غير مباشرة . وقد كان هناك ايضاً على الدوام قسم من الملاكين العقاريين

الكبار مستعد ، لاسباب اقتصادية او سياسية ، للتعاون مع زعماء البرجوازية المالية والصناعية . وهكذا امكن ان تتم مساومة عام ١٦٨٩ بسهولة . فقد تركت الغنيمة السياسية ـ المناصب الرابحة والدائمة ـ لملاكي الاراضي النبلاء ، شرط احترام ما للطبقة المتوسطة المالية والصناعية والتجارية من مصالح اقتصادية . وقد كانت هذه المصالح الاقتصادية قوية في ذلك العهد الى حدّ السيطرة على سياسة الامة العامة . كانت ثمة ، بالطبع ، مشاحنات حول هذه المسألة او تلك ، ولكن الطغمة الاريستقراطية كانت تدرك تمام الادراك ان ازدهارها الاقتصادي مرتبط بصورة لا تنفصم عراها بازدهار الطبقة المتوسطة الصناعية والتجارية .

ومنذ ذلك الحين ، غدت البرجوازية جزءاً اصيلا ، وضيعاً من الطبقات الحاكمة في انجلترا ، ولكنه جزء معترف به ، وله مع سائر الاجزاء مصلحة في اخضاع الجماهير الشعبية الكادحة الغفيرة . فالتاجر او الصناعي شغل مركز رب العمل او ، كما كان يقال في انجلترا منذ زمن غير بعيد ، «الرئيس الآمر الطبيعي» ازاء مستخدميه وعماله وخدمه . وكانت مصلحته تقضي عليه بان يبتز منهم اكبر قدر ممكن من العمل واحسنه بقدر الامكان ؛ ولهذا الغرض كان ينبغي له ان يعودهم على الرضوخ اللازم . وكان ، هو نفسه ، متديناً ؛ وكان دينه قد اعطاه راية تغلب تحتها على الملك والاسياد . وسرعان ما اكتشف ايضاً في هذا الدين وسيلة لكي يكيف عقول رعاياه الطبيعيين ولكي يجعلهم طيعين لاوامر ارباب العمل الذين وضعتهم عناية الله المجهولة فوقهم . وبايجاز ، اصبح البرجوازي الانجليزي منذ ذلك الوقت يشارك في قمع «الفئات الدنيا» ـ في اضطهاد الجماهير الشعبية الغفيرة المنتجة ، ـ وكان تأثير الدين وسيلة من الوسائل المستخدمة في هذه الاغراض .

وثمـة امر آخر اسهـم في تعزيز النزعـة الدينيـة عند البرجوازية ، هو ازدهار المادية في انجلترا . فان هذا المذهب الجديد لم يكن ليثير ذعر الطبقة المتوسطة التقية وحسب ، بل انه اعلن نفسه ايضاً ، في آخر المطاف ، الفلسفة الوحيدة الملائمة للناس المتعلمين وللمثقفين العلمانيين ، وذلك على نقيض الدين الذي يصلح تماماً للجماهير غير المتعلمة ، بما فيها البرجوازية . ومع هوبس ، برز هذا المذهب على المسرح ، مدافعاً عن الامتيازات الملكية وعن الحكم المطلق ، ودعا الملكية المطلقة الى ترويض هذا puer robustus sed malitiosus * ، اي الى ترويض الشعب . كذلك كان الامر مع اتباع هوبس ، مع بولينغبروك ، وشافتسبيري ، وغيرهما ؛ فان الشكل الجديد من المادية اي التأليه السببي ، ظل مذهباً اريستقراطياً ، مغلقاً خفياً ، ولذا كانت تكرهه الطبقة المتوسطة ، لا لهرطقاته الدينية وحسب ، بل ايضاً لعلاقته بالاتجاه السياسي المعادي للبرجوازية . ولذا ، بوجه هذه المادية وهذا التأليه السببي الاريستقراطيين ، تبين ان الشيع البروتستانتية بالذات ، التي كانت تقدم الراية والمحاربين في النضال ضد آل ستوارت ، كانت تقدم ايضاً القوى المحاربة الرئيسية للطبقة المتوسطة التقدمية وما تزال تشكل اليوم العمود الفقري « للحزب الليبرالي الكبير » .

خلال هذه الحقبة ، انتقلت المادية من انجلترا الى فرنسا حيث التقت مدرسة فلسفية مادية اخرى ، هي فرع من الفلسفة الكارتيزية (١٨) ، واندمجت معها . في بادئ الامر ، ظلت المادية في فرنسا ايضاً مذهباً اريستقراطياً بوجه الحصر . ولكن طابعها

* ـ هذا الولد القوي ، ولكنه الخبيث . من مقدمة هوبس لكتابه « عن المواطن » . **الناشر** .

الثوري برز بسرعة . ولم يقصر الماديون الفرنسيون انتقادهم على حقل الدين ، بل انتقدوا ايضاً كل تقليد علمي وكل مؤسسة سياسية في زمنهم . ولكي يثبتوا ان نظريتهم ذات تطبيق شامل ، اختاروا طريقاً مختصراً ، اذ طبقوها بشجاعة على جميع مواضيع المعرفة في مؤلف عملاق اخذوا اسمه ، هو «الانسيكلوبيديا» . وهكذا غدت المادية بهذا الشكل او ذاك من شكليها ، المادية السافرة او التأليه السببي ، - مذهب كل الشبيبة المتعلمة في فرنسا، وكان نفوذ هذا المذهب كبيراً الى حد انه ، وهو الذي حضنه الملكيون في انجلترا ، قد اعطى الجمهوريين وانصار الارهاب الفرنسيين راية نظرية اثناء الثورة الكبرى ، وقدم نص «اعلان حقوق الانسان» (١٩) .

وقد كانت الثورة الفرنسية الكبرى الانتفاضة الثالثة التي قامت بها البرجوازية ، ولكنها كانت اول انتفاضة خلعت عن نفسها الزي الديني كلياً ، وجرى النضال فيها على صعيد سياسي سافر . وكانت ايضاً اول انتفاضة سار النضال فيها حتى النهاية بالفعل ، حتى القضاء على احد الطرفين المتحاربين ، الاريستقراطية ، قضاء تاماً ، وحتى انتصار الطرف الآخر ، البرجوازية ، انتصاراً نهائياً . في انجلترا تجسدت الصلة المستمرة بين مؤسسات ما قبل الثورة وما بعدها ، والمساومة بين ملاكي الاراضي الكبار والرأسماليين ، في استمرار السوابق الحقوقية وفي الاحتفاظ باشكال القانون الاقطاعية باحترام واجلال . اما في فرنسا فقد قطعت الثورة قطيعة نهائية مع تقاليد الماضي ، وكنست آخر آثار الاقطاعية ، وكيفت في Code civil (٢٠) بمهارة على الاوضاع الرأسمالية المعاصرة القانون الروماني القديم - وهو تعبير كامل تقريباً عن العلاقات الحقوقية المطابقة لمرحلة التطور الاقتصادي التي يسميها ماركس بالانتاج البضاعي ، - بدرجة من المهارة لا تزال معها الآن ايضاً هذه

المجموعة الثورية الفرنسية من القوانين قدوة ومثالا لاصلاح قوانين المُلكية في جميع البلدان الاخرى ، بما فيها انجلترا . بيد انه يترتب علينا الا ننسى الامر التالي : اذا كان القانون الانجليزي ما يزال يعبر عن علاقات المجتمع الرأسمالي الاقتصادية في هذه اللغة البربرية الاقطاعية التي تنطبق على الشيء المعبر عنه بالقدر الذي تنطبق به الكتابة الانجليزية على اللفظ الانجليزي ـ قال فرنسي : vous écrivez Londres et vous prononcez Constantinople * ـ فان هذا القانون الانجليزي نفسه هو ايضاً القانون الوحيد الذي حفظ عبر القرون بلا تشويه ونقل الى اميركا والى المستعمرات خير قسم من الحريات الالمانية القديمة ـ وهي الحرية الشخصية والحكم الذاتي المحلي ، والضمانة دون كل تدخل ، باستثناء تدخل المحاكم القضائية ، ـ بينما زالت تماماً هذه الحريات في القارة خلال عهد الملكيات المطلقة ، ولم تتم حتى الآن اعادتها بكاملها في اي مكان كان .

ولكن ، لنعد الى صاحبنا البرجوازي البريطاني . فان الثورة الفرنسية اتاحت له فرصة رائعة لتحطيم التجارة البحرية الفرنسية بمساعدة الملكيات القارية ، وللاستيلاء على المستعمرات الفرنسية ولسحق آخر مطامح فرنسا الى المنافسة البحرية . وهذا سبب من الاسباب التي حملت البرجوازي البريطاني على محاربة هذه الثورة . اما السبب الثاني ، فهو ان اساليب هذه الثورة لم تكن ترضيه اطلاقاً . فلم يكن يرضيه ارهاب الثورة «القبيح» ، ولا محاولة الثورة لبسط سيطرة البرجوازية بصورة مطلقة . وما عسى ان يعمل البرجوازي البريطاني دون اريستقراطيته التي كانت تعلمه آداب المعاشرة ، ـ وهي آداب جديرة بمعلمه ، ـ والتي كانت تخترع

---

* ـ انك تكتب لندن وتلفظ القسطنطينية . **الناشر** .

له موضه ، وتقدم له ضباطاً للجيش الذي يحافظ على النظام داخل البلاد ، وضباطاً للاسطول الذي يستــولي على مستعمرات جديدة واسواق جديدة في الخارج ؟ صحيح انه كانت ثمة اقلية تقدمية من البرجوازية لم تكن مصالحها تكسب كثيراً من المساومة . وهذه الاقلية ، المؤلفة بصورة رئيسية من فئات من الطبقة المتوسطة اقل يسراً ، عطفت على الثورة ، ولكنها كانت عاجزة في البرلمان .

وهكذا ، كلما غدت المادية اكثر فاكثر رمز ايمان الثــورة الفرنسية ، كلما تعاظم تمسك البرجوازي الانجليزي بدينه ، وهو العائش في خوف الله . ألم يبين عهد سيطرة الارهاب في باريس الى ما تؤول الامور اذا فقد الشعب مشاعره الدينية ؟ وكلمـــا انتشرت المادية وانتقلت من فرنسا الى البلدان المجاورة وعززتها تيارات نظرية مماثلة ، ولا سيما الفلسفة الالمانية ، وكلما غدت المادية وغدا الفكر الحر على العموم فى القارة الصفتين المطلوبتين من كل انسان مثقف ، ازدادت الطبقة المتوسطة الانجليزية تمسكا بنحلها الدينية المتنوعة . كانت هذه النحل مختلفة جداً ، الا انهـا كانت تتسم جميعها بطابع ديني ومسيحي واضح .

وبينما كانت الثورة قد امّنت في فرنسا انتصار البرجوازية السياسي ، شرع واط واركرايت وكارترايت وغيرهـم في انجلترا بثورة صناعية نقلت كلياً مركز ثقل القوى الاقتصادية . فقد اخذت ثروة البرجوازية تنمو الآن باسرع بما لا يقاس من نمـــو ثروة الاريستقراطية العقارية . وفي صفوف البرجوازية نفسها ، قذف اصحاب الفبارك اكثر فاكثر بالاريستقراطية الماليـــة واصحـــاب المصارف ، الخ . ، الى المرتبة الثانية . ولم تبق مساومة ١٦٨٩ منطبقة على نسبة القوى بين المشتركين في هذه المساومة ، رغم ما طرأ عليها من تعديلات تدريجية في صالح البرجوازية . كذلك تعدل طابع المشتركين ؛ فان برجوازيـــة ١٨٣٠ كانت تختلف

اختلافاً كبيراً عن برجوازية القرن السابق . فان بقاء السلطة السياسية في ايدي الاريستقراطية التي كانت تستخدمها للوقوف بوجه مطامع البرجوازية الصناعية الجديدة ، لم يبق متلائماً مع المصالح الاقتصادية الجديدة . ولذا كان لا بد من استئناف النضال ضد الاريستقراطية ، وكان لا بد لهذا النضال من ان ينتهي بانتصار القوة الاقتصادية الجديدة . في بادئ الامر اجري الاصلاح البرلماني (٢١) رغم جميع المعارضات ، وبفضل تأثير ثورة ١٨٣٠ الفرنسية . وقد اكسب هذا البرجوازية مكانة كبيرة ومعترفا بها في البرلمان . ثم الغيت القوانين على الحبوب (٢٢) ، مما امن الى الابد تفوق البرجوازية على الاريستقراطية العقارية ، ولا سيما تفوق قسمها الاوفر نشاطاً ، اصحاب الفبارك . وكان ذلك اعظم انتصار احرزته البرجوازية ، ولكنه كان ، في الوقت نفسه ، آخر انتصار احرزته في صالحها وحدها دون غيرها . فقد اضطرت ، فيما بعد ، الى ان تقتسم جميع انتصاراتها الاخرى مع قوة اجتماعية جديدة ، كانت في البدء حليفة لها ، ثم غدت منافسة لها .

ذلك ان الثورة الصناعية لم تؤد الى نشوء طبقة من اصحاب الفبارك الرأسماليين الكبار فحسب ، بل ادت ايضاً الى نشوء طبقة من عمال الفبارك اوفر عدداً بكثير . وكانت هذه الطبقة تنمو عددياً بقدر ما كانت الثورة الصناعية تشمل فرعاً تلو آخر من الانتاج . وكانت قوتها تزداد مع ازدياد عددها ؛ وقد برزت هذه القوة في عام ١٨٢٤ ، حين اجبرت برلماناً عنيداً متعنتاً على الغاء القوانين التي تحرم الجمعيات العمالية . وخلال الدعاية من اجل الاصلاح ، شكل العمال الجناح الراديكالي في حزب الاصلاح . وجاء قانون عام ١٨٣٢ وحرمهم من حق الاقتراع ، فصاغوا مطالبهم في ميثاق الشعب (٢٣) ، وانتظموا في حزب مستقل ، هو الحزب الشارتي ، الذي كان اول حزب عمالي في ايامنا ،

وذلك لمعارضة العصبة البرجوازية القوية التي طالبت بالغاء القوانين على الحبوب (٢٤) .

ثم انفجرت الثورات في القارة ، في شباط وآذار (فبراير ومارس) ١٨٤٨ ، وقد اضطلع العمال فيها بدور بارز ، وصاغوا فيها ، في باريس على الاقل ، مطالب كانت ، بكل تأكيد ، غير مقبولة من وجهة نظر المجتمع الرأسمالي . وعقب ذلك ، قامت ردة رجعية عامة كان من نتائجها : اولا هزيمة الشارتيين في ١٠ نيسان (ابريل) ١٨٤٨ ، ثم سحق انتفاضة العمال الباريسيين في حزيران (يونيو) من نفس السنة ؛ ثم هزائم ١٨٤٩ في ايطاليا والمجر والمانيا الجنوبية ، واخيراً انتصار لويس بونابرت على باريس ، في ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ . وهكذا امكن الخلاص من المطالب العمالية ، من هذه الفزاعة الرهيبة ، وان لفترة من الزمن ، ولكن باي ثمن ! فاذا كان البرجوازي البريطاني قد اقتنع فيما مضى بانه ينبغي اخضاع الشعب البسيط بواسطة الدين ، فباي مزيد من القوة كان لا بد له من ان يشعر بضرورة ذلك بعد كل ما عاناه ! ولذا استمر البرجوازي البريطاني ينفق الآلاف وعشرات الآلاف ، وسنة اثر سنة ، في سبيل التبشير بالانجيل في صفوف الفئات الدنيا ، دون أن يتنازل ويلقي بالا لسخريات زملائه القاريين . ولم يكتف بآلته الدينية فاستنجد «بالاخ جوناتان» (٢٥) اي باحذق واكبر مضارب في حقل الدين واستورد من اميركا يقظة revivalism (٢٦) مودي وسانكي وامثالهما ، بل انه قبل اخيراً المساعدة الخطرة التي اسداها «جيش الخلاص» الذي يعيد اشكال الدعاية التي لجأت اليها المسيحية البدائية ، ويتوجه الى الفقراء بوصفهم اناساً اختارهم الله ، ويكافح الرأسمالية بطريقته الدينية ، ويطور بالتالي عناصر من النضال الطبقي المسيحي البدائي من شأنها ان تثير ذات يوم الكثير من القلق بين الاثرياء الذين يقدمون المال الآن لهذا الغرض .

يبدو ان من قوانين التطور التاريخي الا تتمكن البرجوازية ، في اي بلد من بلدان اوروبا ، من الاستيلاء على السلطة السياسية بلا منازع ، - لزمن طويل كفاية على الاقل - كما فعلت الاريستقراطية الاقطاعية في القرون الوسطى . وحتى في فرنسا ، حيث استؤصلت الاقطاعية من عميق جذورها ، لم تستول البرجوازية ، بوصفها طبقة ، على الحكم بكامله ، الا خلال حقبات قصيرة من الزمن . ففي عهد لويس فيليب (١٨٣٠-١٨٤٨) ، حكمت فئة صغيرة من البرجوازية ، وحرمت فئتها الاكثر عدداً بكثير من حقوق الاقتراع بواسطة نصاب انتخابي عال جداً . وفي عهد الجمهورية الثانية (١٨٤٨ - ١٨٥١) ، حكمت البرجوازية بأسرها ، ولكن لمدة ثلاث سنوات فقط ؛ وقد ادى عجزها الى الامبراطورية الثانية . والآن فقط ، في عهد الجمهورية الثالثة ، احتفظت طبقة البرجوازية بأسرها بالسلطة خلال عشرين سنة ؛ وها انه تبدو عليها الآن علائم انحطاط تجلب السرور . وحتى الآن لم تستطع البرجوازية ان تبسط سيادتها لمدة طويلة الا في بلدان كاميركا ، حيث كانت الاقطاعية غير معروفة ، وحيث تشكل المجتمع ، منذ البدء ، على الاساس البرجوازي . ولكن خلفاء البرجوازية ، العمال ، يقرعون الباب بشدة حتى في فرنسا واميركا .

ان البرجوازية لم تملك قط السلطة في انجلترا دون منازع . حتى ان انتصارها في عام ١٨٣٢ ترك في ايدي الاريستقراطية جميع المناصب الحكومية الرئيسية تقريباً . لقد استعصى عليَّ فهم الضعة التي قبلت بها الطبقة المتوسطة الغنية هذا الوضع الى ان سمعت صناعياً ليبيرالياً كبيراً ، اسمه و . أ . فورستر ، يلقي خطاباً امام الشباب في برادفورد ويتوسل فيه اليهم ان يتعلموا اللغة الفرنسية بوصفها وسيلة للمرء كي يشق طريقه في الحياة ؛ وقد استشهد بتجربته الخاصة وروى قصة اضطرابه وتلبكه عندما دخل فجأة ، بوصفه وزيراً ، في مجتمع كانت اللغة الفرنسية ضرورية فيه على الاقل

بقدر ما هي عليه اللغة الانجليزية ! وبالفعل ، كان ممثلو الطبقة المتوسطة الانجليزية عادة في ذلك العهد حديثي النعمة ، عديمي الثقافة تماماً ، وكان لا بد لهم ، سواء شاؤوا ام ابوا ، ان يتركوا للاريستقراطية جميع المناصب الحكومية العليـــا ، حيث كان من الضروري ان يتمتـــع المرء بصفـــات غير ضيق الفكر الجزائري والعجرفة الجزائرية ، المجملين بالمهارة في الاعمال * . بل ان

---

* ثم ان الغطرسة الشوفينية القوميـــة هي نصيح رديء جدا في ميدان الاعمال ايضا . فحتى الاولـــة الاخيرة ، كان الصناعي الانجليزي العادي يعتبر انه من المهين للانجليزي ان يتكلم بلغة غير لغته ، وكان يتفاخر الى حد ما بان «المساكين» الاجانب يقيمون في انجلترا ويعفونه من مؤونة تصريف منتوجاتـــه في الخارج . بل انه لم يلاحظ ان هؤلاء الاجانب ، الذين كانوا بمعظمهم من الالمان ، قد وضعوا يدهم ، بفضل ذلك ، على قسم كبير من التجارة الخارجية البريطانية ، سواء في حقل الصادرات ام في حقل الواردات ، وان التجارة الخارجية البريطانية المباشرة اخذت تقتصر تدريجيا على المستعمرات والصين والولايات المتحدة واميركا الجنوبية . كذلك لم يلاحظ ان هؤلاء الالمان كانوا يتاجرون مـــع المان آخرين خارج الحدود ، وان هؤلاء الآخيرين شكلوا مع مر الزمن شبكـــة كاملة من المستعمرات التجارية في عموم الكرة الارضيـــة . ولكن عندما شرعت الماليا منذ اربعين سنة تنتج بصورة جدية من اجل التصدير ، قدمت لها هذه الشبكة من المستعمرات خدمة ممتازة لأجل تحويلهـــا في اجل قصير جدا من بلد يصدر الحبوب الى بلد صناعي من الدرجـــة الاولى . وآنذاك ، اي منذ عشر سنوات ، تملك القلق الصناعي الانجليزي في آخر المطاف ، فطلب من سفرائه وقناصله ان يبينوا له كيف حدث له انه لم يبق في مستطاعه ان يحتفظ بزبائنه . فجاء الجواب بالاجماع : ١ ــ انت لا تتعلم لغة زبائنك ، بل تطالب بان يتكلموا بلغتك ، ٢ ــ انت لا تحاول ان تلبي حاجـــات زبائنك وعاداتهم واذواقهم ، وليس هذا وحسب ، بل تطالب ايضا بان يعملوا بموجب حاجاتك وعاداتك واذواقك الانجليزية .

المناقشات اللامتناهية التي تجري اليوم على صفحات الجرائد حول التعليم البرجوازي (middle-class education)، تثبت ان الطبقة المتوسطة الانجليزية لا تعتبر نفسها صالحة كفاية لتوفير ثقافة عالية، وتطمع بشيء اكثر تواضعاً. ولذا بدا من الطبيعي تماماً، حتى بعد الغاء القوانين على الحبوب، ان استبعد اولئك الذين استطاعوا احراز النصر، من امثال كوبدن، وبرايت وفورستر، وغيرهم عن الاشتراك رسمياً في حكم البلاد، الى ان جاء الاصلاح البرلماني الجديد (٢٧) بعد عشرين سنة وفتح لهم ابواب مكاتب الوزراء. وما تزال البرجوازية الانجليزية متشبعة حتى اليوم بشعور دونيتها الاجتماعية الى حد انها تموّل على حسابها وعلى حساب الشعب طائفة مزينة من الزتابير مهمتها تمثيل الامة تمثيلا لائقاً في جميع المناسبات الرسمية، وهي تعتبر انها حصلت على سامي الشرف حين يعتبر احد اعضائها جديراً بان يقبل في هذه الطائفة المختارة المميزة، رغم انها صنعتها بنفسها.

ولم تكد الطبقة المتوسطة الصناعية والتجارية تتوصل الى طرد الاريستقراطية العقارية من السلطة السياسية نهائياً، حتى برز منافس جديد، هو الطبقة العاملة. الا ان الردة الرجعية التي اعقبت الحركة الشارتية والثورات القارية، وكذلك ازدهار الصناعة الانجليزية بصورة لا سابق لها من عام ١٨٤٨ الى عام ١٨٦٦ (الازدهار المنسوب عادة الى تأثير حرية التجارة وحدها، ولكنه الناجم، الى حد اكبر بكثير، عن تطور السكك الحديدية والملاحة المحيطية ووسائط النقل بوجه عام تطوراً هائلا) قد اخضعا العمال مرة اخرى لتبعية الحزب الليبيرالي الذي شكلوا فيه جناحه الراديكالي كما في الايام التي سبقت الحركة الشارتية. الا ان مطلب حق الانتخاب للعمال غدا تدريجياً مطلباً لا يقاوم. وبينما كان الزعماء الويغ للحزب الليبيرالي يجبنون، اظهر دزرائيلي تفوقه،

اذ انه حمل التوري (٢٨) على استغلال الفرصة السانحة ، فادخل حق الاقتراع في الدوائر الانتخابية بالمدن لمستاجري المساكن (houschold suffrage) وعدل تقسيم الدوائر الانتخابية . وبعد فترة وجيزة جاء التصويت السري ؛ ثم ، في عام ١٨٨٤ ، شمل حق الاقتراع مستاجري المساكن في المقاطعات الريفية ، وطرأ تعديل جديد على تقسيم الدوائر الانتخابية جعلها متساوية نوعاً ما . وقد زادت كل هذه التدابير من القوة الانتخابية للطبقة العاملة زيادة كبيرة جداً الى حد ان العمال يشكلون الآن اكثرية المقترعين في ١٥٠ او ٢٠٠ دائرة انتخابية على الاقل . ولكن ليست ثمة مدرسة لتعليم موقف الاحترام من التقاليد خيراً من النظام البرلماني ! فاذا كانت الطبقة المتوسطة تنظر باجلال واحترام الى ما كان يسميه اللورد جون مانرز مازحاً «طبقتنا النبيلة القديمة» ، فان سواد العمال كانوا يتطلعون آنذاك باحترام وتقدير الى ما كان يسمى في ذلك الوقت «بخير الطبقات» ، اي الى الطبقة المتوسطة . وبالفعل ، كان العامل البريطاني ، لخمسة عشر عاماً تقريباً ، العامل النموذجي الذي كان احترامه وتقديره لصاحبه وقناعته وخجله عند المطالبة بحقوقه تصب البلسم الشافي على جراح اصحابنا الاقتصاديين الالمان من مدرسة **اشتراكية الكراسي** (Kathcder Sozialismus) (٢٩) الذين كانت تصيبهم بها النزعات الشيوعية والثورية المستعصية عند ابناء بلدهم ، اي عند العمال الالمان .

ولكن الطبقة المتوسطة الانجليزية كانت ابعد نظراً من الاساتذة الالمان ، اذ كانت تتالف من رجال اعمال اكثر براعة منهم . ولم تتنازل عن قسم من سلطتها للعمال الا تحت ضغط الظروف . فقد تعلمت خلال الحركة الشارتية فهم ما يستطيعه الشعب ، هذا pucr robustus sed malitiosus . ومذ ذاك اضطرت الى جعل جزء كبير من مطالب ميثاق الشعب قانوناً للمملكة

المتحدة . فالآن ، ينبغي ، اكثر من اي وقت مضى ، اخضاع الشعب بوسائل معنوية . واول وسيلة واهم وسيلة معنويـــة للتاثير في الجماهير كانت وما تزال الدين . ولهذا يسود القسس في اللجان المدرسية ، ولهذا تفرض البرجوازية على نفسها نفقات متزايدة من اجل تشجيع مذهب اليقظة بكل مظاهره وانواعه ابتداء من النظام الطقسي حتى «جيش الخلاص» .

والآن ، احرزت الاحترامية البريطانية انتصاراً على الفكر الحر وعلى اللامبالاة الدينية عند البرجوازي . فقد امتلأ العمال الفرنسيون والعمال الالمان بروح التمرد . واصيبوا جميعاً بوباء الاشتراكية ، وفضلا عن ذلك ، لم يكونوا يهتمون كثيراً ، لاعتبارات موزونة جداً ، بمراعاة القانون عند اختيار الوسائل للظفر بالسلطة . واخذ هذا puer robustus يزداد بالفعل malitiosus يوماً بعد يوم . فلم يبق امام البرجوازية الفرنسية والبرجوازية الالمانيـــة من وسيلة ، الا رمي فكرهما الحر خلسة الى جانب ، كما يرمي الشاب بصورة غير ملحوظة الى البحر ، حين يصاب بالدوار ، السيكار المشتعل الذي كان يزهو به على متن الباخرة . فان المجدفين على الله اخذوا ، الواحد تلو الآخر ، يتظاهرون بالتقوى ، ويتحدثون باحترام عن الكنيسة وعقائدها وطقوسها ، بل انهم اخذوا يتقيدون بها لانه كان من المستحيل تجنبها . واكتفى البرجوازيون الفرنسيون maigre * ايام الجمعة واصغى البرجوازيون الالمان ، في صبر ، الى المواعظ البروتستانتية الطويلة ايام الآحاد وهم جالسون على مقاعدهم في الكنيسة . وحلت بالبرجوازيين مصيبة بسبب ماديتهم . «Die Religion muss dem Volk erhalten werden» — «ينبغـــي الاحتفاظ بالدين من اجل الشعب» — هذه هي الوسيلـــة الاخيرة

* — اكل صيامي . الناشر .

والوحيدة لانقاذ المجتمع من الهلاك التام . ولكنهم ، لسوء حظهم ، لم يكتشفوا ذلك الا بعد ان بذلوا قصارى جهودهم لتحطيم الدين الى الابد . والآن ، جاءت اللحظـــة التي استطاع فيهــــا البرجوازي البريطاني بدوره ان يسخر منهم ويهتف قائلا : «ايها الاغبياء ، كان بوسعي ان اقول لكم ذلك منذ مائتي سنة !»

بيد اني اخشى ان لا تستطيع ، لا غباوة البرجوازي البريطاني الدينية ولا ارتداد البرجوازي القاري الى الدين post festum * ، ان يقيما سداً بوجه مد البروليتاريا الصاعد اعلى فاعلى . ان التقليد قوة كبيرة معوّقة ، انه vis inertiae * * في التاريخ ؛ ولكن ، بما انه منفعل وحسب ، فمن المؤكد تحطيمه . ولذا فان الدين ايضاً لا يسعه ان يكون سنداً للمجتمع الرأسمالي مدة طويلة . واذا كانت افكارنا الحقوقية والفلسفية والدينية هي نتائج ، قريبـة او بعيدة الى هذا الحد او ذاك ، للعلاقات الاقتصاديـة السائدة في مجتمع معين ، فلا يمكن لهذه الافكار ان تبقى طويلا بعد تغير العلاقات الاقتصادية تغيراً تاماً . ولا بد لنا اما ان نؤمن بوحي ما فوق الطبيعة ، واما ان نقر بانه ما من عقيدة دينية تستطيع ان تنقذ مجتمعاً منهاراً .

وبالفعل ، اخذ العمال في انجلترا ايضاً يتحركون من جديد . ولا ريب انهم مقيدون بشتى التقاليد . اولا التقاليد البرجوازية ومنها هذا الوهم الواسع الانتشار والقائل انه لا يمكن ان يكون ثمة سوى حزبين ، حزب المحافظين والحزب الليبيرالي ، وانه ينبغي للطبقة العاملة ان تتوصل الى تحررها بمساعدة الحزب الليبيرالي الكبير . ثانياً تقاليد العمال انفسهم ، الموروثة من ازمنة المحاولات

---

* ــ بعد فوات الاوان (حرفياً ، بعد العيد) . **الناشر** .

* * ــ قوة الاستمرار . **الناشر** .

الوجلة الاولى ، محاولات قيام الطبقة العاملة بعمل مستقل : ومن هذه التقاليد فصل جميع العمـال الذين لم يقضوا مدة التدريب المنتظم من التريديونيونات (النقابات) الكثيرة القديمـة ، وهذا يعني فقط ان كلا من هذه النقابات تخلق لنفسها جماعة من كاسري الاضرابات . ولكن الطبقة العاملة الانجليزية تتحرك الى الامام رغم كل ذلك ، حتى ان الاستاذ برينتـانو ملزم بابلاغ هذا الامر ، بأسف ، الى زملائه في Katheder-socialisten . ان الطبقة العاملة تتحرك ـ ككل شيء في انجلترا ـ بخطى بطيئة متزنة ، هنا تتردد ، وهناك تتسكع وتقوم بمحاولات وجلة وعقيمة احياناً وهي هنـا وهناك ، تتحرك بغلوّ في الحذر من كلمة «الاشتراكية» ، في حين انها تمتص تدريجياً جوهر الاشتراكية . انهـا تتحرك ، وها هي حركتها تمتد وتشمل الفئات العمالية ، الواحدة تلوَ الاخرى . وقد هزت هذه الحركة في الوقت الحاضر فعلة ايست ـ اند (٣٠) في لندن وايقظتهم من خمودهم ، فرأينا اية دفعة رائعة اطلقتها هذه القوى الجديدة بدورها في الطبقة العاملة . واذا كانت هذه الحركة لا تسير بالسرعة التي يرغب فيها بعضهم من فاقدي الصبر ، فلا ينسونّ ان الطبقة العاملـة هي التي تصون خير صفات الطبع الانجليزي القومي ، وانه حين تتم خطوة الى الامام في انجلترا ، فانها ، على العموم ، لا تذهب ابداً هباء . واذا كان ابناء الشارتيين القدماء ، للاسباب المذكورة اعلاه ، غير ما كان من الممكن انتظاره ، فان احفادهم سيكونون ، على ما يبدو ، جديرين باجدادهم .

بيد ان انتصار الطبقة العاملـة الاوروبيـة لا يتوقف على انجلترا فقط : فلن يمكن احراز هذا الانتصار الا بتضافر جهود انجلترا وفرنسا والمانيا على الاقل . فان الحركة العمالية في فرنسا والمانيا تسبق كثيراً الحركة العمالية في انجلترا . بل انه يمكن تعيين موعد انتصارها في المانيا . فان النجاحات التي احرزتها هناك الحركـة

العمالية خلال السنوات الخمس والعشرين الاخيرة لا سابق لها . فهي تتقدم بسرعة نامية ابداً . واذا كانت الطبقـــة المتوسطـــة الالمانية قد اظهرت حقارة يرثى لها ، وانعدام الكفاءات السياسية والروح النظامي والجرأة والعزيمة والمثابرة ، فان الطبقة العاملة الالمانية قد بينت تماما انها تملك جميع هذه الصفات بصـــورة كافية . لقد كانت المانيا، منذ اربعمئة سنة تقريباً ، نقطة الانطلاق لاول انتفاضة كبيرة قامت بها الطبقة المتوسطة الاوروبية ؛ وفي الطور الذي بلغته الاحداث الآن ، هل من خارج حدود الامكان ان تصبح المانيا ايضا مسرحاً لاول انتصار كبير تحرزه البروليتاريا الاوروبية ؟

ف . انجلس

٢٠ نيسان (ابريل) ١٨٩٢ .

صـــدر في كتاب : Frederick Engels. «Socialism Utopian and Scientific». London, 1892
ومع بعض الاختصارات بترجمة المؤلف الى الالمانية في مجلة «Die Neue Zeit» («دي نويه زايت») ، المجلد ١ ، العددين ١ و٢ ، ١٨٩٢-١٨٩٣

يصدر حســب نص الكتاب . تمـــت الترجمـــة نقلا عن الانجليزية

الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية

١

ان الاشتراكية العصرية ، من حيث مضمونها هي ، في المقام الاول ، نتيجة لملاحظة التناقضات الطبقية السائدة في المجتمع العصري بين المالكين وغير المالكين ، بين الرأسماليين والعمال الاجراء ، من جهة ، ولملاحظة الفوضى السائدة في الانتاج من جهة اخرى . ولكن هذه الاشتراكية تبدو في البدء ، من حيث شكلها النظرى ، كأنها مجرد استمرار ، اكثر تطوراً وانسجاماً ، للمبادئ التي صاغها المنورون الفرنسيون الكبار في القرن الثامن عشر . وكان لا بد لها ، ككل نظرية جديدة ، من ان تنطلق قبل كل شيء من المادة الفكرية المكدسة سابقاً ، رغم انها تمد جذورها عميقاً في ميدان الوقائع المادية الاقتصادية .

ان الرجال العظام الذين اناروا الرؤوس في فرنسا من اجل الثورة التي كانت تقترب ، كانوا ايضاً ثوريين للغاية . فلم يقروا باي سلطة خارجية . وخضع الدين ، والطبيعة ، والمجتمع ، ونظام الدولة — وكل شيء ، لاقسى ما يكون من الانتقاد ؛ واضطر كل شيء الى المثول امام محكمة العقل لكي يبرر وجوده او لكي يزول من الوجود . وغدا العقل المفكر المقياس الوحيد لكل ما هو موجود . وكان ذلك في زمن انتصب فيه العالم على الرأس* على حد

---

* اليكم ما يقوله هيغل عن الثورة الفرنسية : «وان فكرة الحق ، مفهومه ، قد احرزت الغلبة من **الوهلة الاولى** ، ولم يكن بوسع دعائم الاستبداد المتداعية ان تبدي بوجهها اي مقاومة . وعلى فكرة الحق بني

قول هيغل ، اولا بمعنى ان الرأس والمبادئ التي توصل اليها عن طريق الفكر كانت تدعي انها وحدها جديرة بان تتخذ اساساً لكل اعمال الانسان ولكل العلاقات الاجتماعية ، وفيما بعد ، بمعنى اوسع ، بمعنى ان الواقع المخالف لهذه المبادئ قد قُلب ، في واقع الامر ، رأساً على عقب . فان جميع اشكال المجتمع والدولة السابقة ، وجميع المفاهيم التقليدية قد اعتبرت غير معقولة وطرحت جانباً بوصفها عفاشة قديمة ؛ لقد سار العالم حتى ذاك وراء الاوهام وحدها ، وكل الماضي لا يستحق غير الشفقة والازدراء . والآن بزغت الشمس للمرة الاولى وقامت سيادة العقل . فان الاوهام ، والجور ، والامتيازات ، والاضطهاد ، كل ذلك يجب ان يخلي المكان من الآن وصاعداً للحقيقة الخالدة ، والعدالة الخالدة ، والمساواة النابعة من الطبيعة نفسها ، وحقوق الانسان الراسخة .

الا اننا نعرف اليوم ان سيادة العقل هذه لم تكن سوى سيادة البرجوازية المصورة بصورة المثال الاعلى ، وان العدالة الخالدة

الدستور ، وعليها كان ينبغي ان يرتكز كل شيء من الآن وصاعداً . ومنذ ان شرعت الشمس تشع في السماء وشرعت الكواكب تدور حولها ، لم ير احد الساانا ينتصب على رأسه ، اي يعتمد على الفكر ويبني الواقع تبعاً للفكر . ولقد كان انكساغوراس اول من قال ان Nûs اي العقل يدير العالم ، ولكن ها هو ذا الانسان يتوصل الآن للمرة الاولى الى الاعتراف بان الفكر هو الذي يتعين عليه ان يدير الواقع الروحي . كان ذلك بمثابة **طلوع بديع للشمس . وبفرح وسرور حيت جميع الكائنات المفكرة مجيء العصر الجديد** . وفي ذلك الوقت ساد **ابتهاج سام ، واهتز العالم كله بحماسة الروح** كانما تصالح المبدأ الالهي للمرة الاولى مع العالم» (هيغل ، «فلسفة التاريخ» ، عام ١٨٤٠ ص ٥٣٥) . ــ اولم يحن الحين ، في آخر الامر ، لتطبيق القانون بصدد الاشتراكيين ضد الخطر الذي يتهدد دعائم المجتمع من جراء تعاليم البروفسور الراحل هيغل ؟

تجسدت في العدلية البرجوازية ، وان المساواة تلخصت في المساواة المدنية امام القانون ، وان الملكية البرجوازية ... اعلنت اول حق من حقوق الانسان . وان دولة العقل ـ العقد الاجتماعي الذي وضعه روسو (٣١) ـ قد رأت النور بشكل جمهورية ديموقراطية برجوازية ، ولم يكن بالامكان ان يحدث ذلك على غير هذا الشكل . فان كبار مفكري القرن الثامن عشر ، شأنهم شأن جميع اسلافهم ، لم يكن بوسعهم تخطي الحدود التي فرضها عليهم عصرهم .

ولكن ، الى جانب التناقض بين النبلاء الاقطاعيين والبرجوازية ، التي برزت كممثلة للمجتمع الباقي كله ، كان التناقض الشامل بين المستثمِرين والمستثمَرين ، بين الاغنياء الكسالى والفقراء الكادحين . ان هذا الامر الاخير هو الذي اتاح لممثلي البرجوازية ان يظهروا انفسهم ، لا بمظهر ممثلي طبقة ما ، بل بمظهر ممثلي الانسانية المتألمة جمعاء . وفضلا عن ذلك ، كانت البرجوازية مثقلة ، منذ نشوئها ، بتناقضها الخاص : فان الرأسماليين لا يستطيعون البقاء دون العمال الاجراء ؛ وبقدر ما كان المعلم الحرفي في القرون الوسطى يتحول الى برجوازي عصري ، بقدر ما كان الصانع الحرفي والاجير اليومي غير المنتسب الى الحرفة يصبحان بروليتاريين . واذا كانت البرجوازية قد استطاعت ، بعامة ، ان تزعم ، ببعض الحق ، انها تمثل في **النضال ضد النبلاء** مصالح مختلف الطبقات الكادحة في ذلك الحين ، فقد كانت تقوم ايضاً ، الى جانب كل حركة برجوازية كبيرة ، حركة مستقلة للطبقة التي كانت السالفة ، المتطورة الى هذا الحد او ذاك ، للبروليتاريا العصرية . فهكذا كانت حركة المعمدانيين الجدد (٣٢) وتوماس مونتزر اثناء الاصلاح وحرب الفلاحين في المانيا ، وحركة السوائيين الحقيقيين (٣٣) اثناء الثورة الانجليزية الكبرى ، وبابوف اثناء الثورة الفرنسية الكبرى . هذه النضالات الثورية المسلحة التي كانت تقوم بها طبقة لم يكتمل

تكوينها كانت تصحبها نظريات مناسبة : اللوحات الطوبوية عن النظام الاجتماعي الامثل في القرنين السادس عشر والسابع عشر (٣٤) ؛ نظريات شيوعية صريحة (موريللي ، مابلي) في القرن الثامن عشر . ولم يقتصر مطلب المساواة على الحقوق السياسية ، انما كان يشمل اوضاع الفرد الاجتماعية ، وأعطي البرهان لا على ضرورة الغاء الامتيازات الطبقية فحسب ، بل ايضاً على ضرورة الغاء الفوارق الطبقية . وكان اول شكل ارتداه المذهب الجديد هو شكل شيوعية متقشفة ، منسوخة عن سبارطه ، تحرم التمتع بجميع اطايب الحياة . ثم ظهر الطوبويون الثلاثة الكبار : سان-سيمون ، الذي كان يقر لحد ما بالميول البرجوازية الى جانب الميول البروليتارية ، وفوريه واوين ؛ وقد عاش اوين في البلد الذي تطور فيه الانتاج الرأسمالي اكثر مما في غيره من البلدان ؛ وبتأثير التناقضات الناجمة عن هذا الانتاج الرأسمالي ، وضع اوين اقتراحاته لالغاء الفوارق الطبقية بصورة نظام مرتبط بالمادية الفرنسية مباشرة .

ويتصف هؤلاء المفكرون الثلاثة بصفة مشتركة ، هي كونهم لا يدّعون بتمثيل مصالح البروليتاريا التي كانت قد تكونت تاريخياً في ذلك الوقت . وعلى غرار المنورين لا ينزعون الى تحرير طبقة اجتماعية معينة قبل غيرها ، بل الى تحرير الانسانية بأسرها دفعة واحدة . وعلى غرارهم ، يشاؤون ان يبسطوا سيادة العقل والعدالة الخالدة ؛ الا ان الفرق بين هذه السيادة وسيادة العقل عند المنورين كالفرق بين الثرى والثريا . فالعالم البرجوازي ، القائم على مبادئ هؤلاء المنورين، جائر ومخالف للعقل مثل الاقطاعية وسائر الانظمة الاجتماعية السابقة ، ولذا ينبغي القذف به هو ايضاً في مقلب النفايات . واذا كان العقل الحقيقي والعدالة الحقيقية لم يحكما العالم حتى الآن ، فلأنهما لم يفهما الفهم اللازم . ذلك بكل

بساطة ، لان العبقري الذي كان لا بد له ان يكشف الحقيقة لم يظهر من قبل ، ولكنه ظهر الآن واكتشف الحقيقة . وظهور هذا العبقري الآن واكتشافه للحقيقة الآن بالذات ، ليسا ابداً نتيجة ضرورية لسير التطور التاريخي العام وحدثاً محتوماً ، انما هما من حسن الصدفة فقط . فقد كان من الممكن تماماً ان يولد هذا العبقري قبل ٥٠٠ سنة ، مثلا ، فيجنب الانسانية ٥٠٠ سنة من الاخطاء والنزاعات والآلام .

لقد رأينا كيف جعل الفلاسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر ، ممهدو طريق الثورة ، من العقل القاضي الاعلى الوحيد لكل ما هو موجود . كان ينبغي ، بنظرهم ، بناء المجتمع والدولة على العقل ، وازالة كل ما هو مخالف للعقل الخالد بدون شفقة . وقد رأينا ايضاً ان هذا العقل الخالد لم يكن في الواقع سوى الفهم المجعول مثالياً عند المواطن من الطبقة المتوسطة الذي كان آنذاك بالضبط بسبيل ان يصير برجوازياً . ولكن ، حين حققت الثورة الفرنسية مجتمع العقل هذا ودولة العقل هذه ، اتضح ان المؤسسات الجديدة ، وان جاءت عقلانية بالقياس الى النظام الماضي ، لم تكن معقولة اطلاقاً . فقد اخفقت دولة العقل اخفاقاً تاماً . وتحقق العقد الاجتماعي الذي وضعه روسو ، في عهد الارهاب ؛ وللخلاص من هذا العهد ارتمت البرجوازية ، وقد فقدت الثقة بكفاءتها السياسية ، في لجة ارتشاء الديريكتوار (٣٥) اولا ، ثم استظلت ، في نهاية الامر ، كنف الاستبداد النابليوني . وتحول السلام الابدي الموعود به الى سلسلة لا نهاية لها من حروب الفتوحات . ولم يكن مصير مجتمع العقل بالمصير الافضل . فبدلا من ان يجد التناقض بين الاغنياء والفقراء حلا له في الرفاهية العامة ، تفاقم واستشرى من جراء الغاء امتيازات الحرف وغيرها من الامتيازات التي كانت بمثابة جسر فوق هذا التناقض ، ومن جراء الغاء مؤسسات

الكنيسة للبر والاحسان التي كانت تلطف من شدته بعض الشيء . ان «حرية المُلكية» من القيود الاقطاعية ، ان هذه «الحرية» التي تحققت الآن فعلا قد اصبحت بالنسبة للبرجوازي الصغير والفلاح حرية بيع هذه الملكية الصغيرة التي تضغط عليها مزاحمة الرأسمال الكبير والملكية العقارية الكبيرة بشدة فائقة ، من هؤلاء الطواغيت بالذات ؛ وهكذا تحولت هذه «الحرية» بالنسبة للبرجوازيين الصغار وللفلاحين الى حرية من الملكية . وجاء تطور الصناعة بسرعة على الاساس الرأسمالي فجعل من فقر الجماهير الكادحة وآلامها الشرط الضروري لوجود المجتمع . واخذ النقد يصبح اكثر فاكثر ، على حد قول كارليل ، العنصر الجامع الوحيد لهذا المجتمع . وسنة بعد سنة ازداد عدد الجرائم . ومع ان العيوب الاقطاعية التي كانت تزهو وتتباهى فيما مضى في رابعة النهار ، لم يتم القضاء عليها ، الا انها اقصيت الى العتمة ؛ ومحلها ، ازدهرت العيوب البرجوازية التي كانت لا تعيش فيما مضى الا سراً ، وتشعبت بكثرة . وتحولت التجارة اكثر فاكثر الى احتيال . وتجسد «الاخاء» الذي اعلنه الشعار الثوري (٣٦) في الغش والحسد الناجمين عن المزاحمة . وحلت الرشوة محل الاضطهاد بالعنف ، وحلت النقود محل السيف بوصفها اهم وسيلة للسلطة الاجتماعية . وانتقل حق الليلة الاولى من الاقطاعيين الى البرجوازيين اصحاب الفبارك . وانتشر البغاء بنسب غير معروفة حتى ذاك . وظل الزواج ، كما في السابق ، الشكل الشرعي ، الرداء الرسمي للبغاء ، واكتمل بفيض من الزناء الفاحش . وبكلمة ، ظهرت المؤسسات السياسية والاجتماعية التي اقامها «انتصار العقل» بمثابة مساخر مرّة تخيب الآمال ، بالمقارنة مع وعود المنورين البراقة . ولم ينقص سوى من يتحققون من خيبة الامل ، وقد ظهر هؤلاء في عتبة القرن الجديد . ففي ١٨٠٢ ، اصدر سان-سيمون مؤلفه «رسائل من

جينيف» ؛ وفي ١٨٠٨ ، اصدر فوريه مؤلفـــه الاول ، رغم ان اساس نظريته يعود الى عام ١٧٩٩ ؛ وفي اول كانون الثاني (يناير) ١٨٠٠ ، استلم روبرت اوين ادارة نيو-لانارك (٣٧) .

ولكن ، في ذلك الحين ، كان الاسلوب الرأسمـــالي للانتـاج والتضاد بين البرجوازية والبروليتاريا لا يزالان في الاقمطة . كانت الصناعة الكبيرة في اولى خطواتها في انجلترا ، ومجهولة في فرنسا . والحال ان الصناعة الكبيرة هي وحدها التي تطور ، من جهـــة ، النزاعات التي تجعل من الضروري ضرورة قاهرة اجراء انقلاب في اسلوب الانتاج والغاء طابعه الرأسمالي ـ وهذه النزاعات لا تقوم فقط بين الطبقات التي انشأتها هذه الصناعة الكبيرة ، بل تقوم ايضاً بين القوى المنتجة واشكال التبادل التي ولدتها الصناعـــة الكبيرة ؛ ومن جهة اخرى ، تعطي هذه الصناعة الكبيرة ، خلال تطور القوى المنتجة تطوراً هائلا ، الوسائل اللازمـــة لحلّ هذه النزاعات . فاذا كانت النزاعات الناجمة عن النظام الاجتماعي الجديد لم تكد ترى النور في عام ١٨٠٠ ، فبالاحرى الوسائل اللازمة لحلها. ومع ان الجماهير الباريسية غير المالكة استولت على السلطة مدى لحظة ، اثنـــاء عهد الارهاب ، واستطاعت بالتـــالي ان تؤدي بالثورة البرجوازية الى الانتصار على البرجوازية نفسها ، الا انها لم تفعل بذلك غير ان اثبتت انها لا تستطيع اطلاقاً ان تسيطر مدة طويلة في ظل العلاقات القائمة في ذلك الوقت . فان البروليتاريا التي كانت قد برزت للتو من الجماهير غير المالكة بوصفها جنين طبقة جديدة والتي كانت عاجزة تماماً عن العمل السياسي المستقل ، كانت تبدو مجرد فئة مظلومة ومعذبة ، ولا تمكن مساعدتها في خيرة الاحوال ، نظراً لعجزها عن مساعدة نفسها بنفسها ، الا من الخارج ، من عل .

وقد حدد هذا الوضع التاريخي ايضاً وجهات نظر مؤسسي

الاشتراكية . فان عدم نضوج الانتاج الرأسمالي وعدم نضـــوج العلاقات الطبقية قد قابلتهمـــا نظريات غير ناضجـــة . فان حل المعاضل الاجتماعيـــة ، الذي كان ما يزال في طيات العلاقـــات الاقتصادية التي لما تنضج وتكتمل ، قد لُفّق في الدماغ تلفيقاً . ولم يكن النظام الاجتماعي حافلا بغير النواقص والعيوب ؛ فكانت ازالتها قضية العقل المفكر . ولذا كان ينبغي ابتداع نظام جديد ، ارقى ، للبنيان الاجتماعي ؛ وكان ينبغي فرض هذا النظـــام على المجتمع القائم من الخارج ، بالدعاية ، وبمثال التجارب البيانية ، حين يكون ذلك مستطاعاً . ولذا كان محكوماً على هذه الانظمـــة الاجتماعية الجديدة مسبقاً الاّ تكون سوى طوبويات ؛ وكلمـــا صيغت بمزيد من التفاصيل ، كان لا بدّ لها ان تزداد توغلا في ميدان الخيال الصرف .

بعد ما سبق قوله ، لن نتناول ابداً بمزيد من التفاصيل هذا الجانب من المسألة الذي غدا الآن كلياً في طيات المـــاضي . لينقب البقالون الادباء بزهو وخيلاء في هذه المستغربـــات التي تحملنا اليوم على الابتسام ، وليعجبوا بصفاء ذهنهم هم بالقياس الى مثل هذا «الهوس» . اما نحن ، فتفرحنا اكثر بكثير بـــذور الافكار العبقرية والخواطر العبقرية التي تشق طريقها عند كل خطوة ، عبر الغطاء الخيالي ، والتي لا يراها هؤلاء التافهون الضيقو الافق .

كان سان-سيمون ابن الثورة الفرنسيـــة الكبرى ؛ وكان لم يبلغ الثلاثين من العمر عندما نشبت . كانت الثورة انتصار الطبقة الثالثة ، اي اغلبية الامة **المشغولة** في الانتاج والتجـــارة ، على الطبقتين المتميزتين ، **البطالتين** حتى ذاك ، طبقة النبلاء وطبقـــة الاكليروس . ولكنه سرعان ما تبين ان انتصار الطبقة الثالثة ليس غير انتصار قسم صغير من هذه الطبقة ، اذ انه اقتصر على الظفر

بالسلطة السياسية من قبل الفئة المميزة اجتماعياً من الطبقة الثالثة ، اي من قبل البرجوازية المالكة . وفضلا عن ذلك ، كانت هذه البرجوازية قد تطورت بسرعة في مجرى الثورة ، من جهة ، بالمضاربة على اراضي النبلاء والكنيسة ، المصادرة ثم **المباعة** ، ومن جهة اخرى ، بغش الامة بالتسليمات الحربية . فان سيادة هؤلاء المضاربين في ظل الديريكتوار هي التي ساقت فرنسا والثورة الى شفير الهلاك واعطت بالتالي نابليون ذريعة للقيام بانقلابه ، وهكذا اتخذ التضاد بين الطبقة الثالثة والطبقتين المميزتين ، في رأس سان-سيمون ، شكل تضاد بين «العمال» و«البطالين» . فالبطالون لم يكونوا ممثلي الطبقتين المميزتين السابقتين وحسب ، بل ايضاً جميع من يعيشون من ريعهم دون ان يشتركوا في الانتاج والتجارة . اما «العمال» فلم يكونوا العمال الاجراء وحسب ، بل ايضاً الصناعيين والتجار واصحاب المصارف . ولم يكن هنالك اي شك في ان البطالين قد فقدوا القدرة على القيادة الفكرية وعلى السيادة السياسية ، وهذا ما اكدته الثورة نهائياً . اما ان المعدمين لم يكونوا يتحلون بهذه القدرة ، فذلك ، برأي سان-سيمون ، ما اثبتته تجربة عهد الارهاب . فمن ذا الذي كان لا بد له ، في هذه الحال ، ان يقود ويسود ؟ برأي سان-سيمون ، العلم والصناعة ، اللذان تجمع بينهما رابطة دينية جديدة ، «دين مسيحي جديد» ، صوفي حتماً ، قائم على تسلسل مراتبي صارم ، ومدعو الى بعث وحدة المفاهيم الدينية ، التي تحطمت منذ عهد الاصلاح . ولكن العلم انما هو العلماء ؛ اما الصناعة فهي في المقام الاول البرجوازيون النشطاء ، الصناعيون والتجار واصحاب المصارف . يقيناً انه كان ينبغي لهؤلاء البرجوازيين ان يصبحوا نوعاً من موظفين اجتماعيين ، من اناس يتمتعون بثقة المجتمع كله ، ولكنه كان ينبغي عليهم مع ذلك ان يحتفظوا ازاء العمال بوضع يخولهم

اصدار الاوامر ويمنحهم امتيازات اقتصاديـــة . اما اصحـــاب المصارف فانهم هم الذين كان ينبغي عليهم ان يضبطوا كل الانتاج الاجتماعي بضبط التسليف . ــ وقد كانت هذه النظرة تناسب تماماً تلك المرحلة التي كانت فيها الصناعة الكبيرة في فرنسا ، ومعها التضاد بين البرجوازية والبروليتاريـــا ، لا يزالان بعد في طور النشوء . ولكن ما يشير اليه سان-سيمون بخاصة انما هو الامر التالي : ان ما يهمـــه في المقـــام الاول في كل مكان وزمـــان ، هـــو مصير «الطبقـــة الاكثر عـــدداً والاشـــد فقـــراً («la classe la plus nombreuse et la plus pauvre»).

لقد سبق لسان-سيمون ان قرر في مؤلفـــه «رســـائل من جينيف» انه

«ينبغي على جميع الناس ان يشتغلوا» .

واشار في هذا المؤلف الى ان سيطرة الارهاب في فرنســـا كانت سيطرة الجماهير غير المالكة .

وهتف سان-سيمون متوجها الى هذه الجماهير : «انظروا الى ما جرى في فرنسا عندما سيطر هناك رفقاؤكم : فقد خلقوا المجاعة» .

ولكن ان يفهم المرء ، في عام ١٨٠٢ ، ان الثورة الفرنسية هي نضال طبقي ليس بين النبلاء والبرجوازية وحسب بل أيضاً بين النبلاء والبرجوازية **وبين غير المالكين** ، الا ان هذا الفهم كان بمثابة اكتشاف عبقري من المرتبة العليا . وفي ١٨١٦ اعلن سان-سيمون ان السياسة هي علم الانتاج وتنبأ بامتصاص الاقتصاد للسياسة كلياً . ان الفكرة القائلة بان الاوضاع الاقتصاديـــة هي اساس المؤسسات السياسية لا تبدو ، هنا ، الا بمثابة بذرة . غير ان سان-سيمون عرض هنا بوضوح تام الفكرة القائلة بان حكم الناس سياسياً يجب ان يتحول الى ادارة للاشيـــاء والى قيادة لعمليات الانتاج ، اي الفكرة القائلة «بالغاء الدولة» والتي اثيرت حولهـــا

ضجة كبرى في الآونة الاخيرة . وفي ١٨١٤ ، بعد دخول الحلفاء الى باريس فوراً * ، وايضاً في ١٨١٥ ، خلال حرب المئة يوم (٣٨) ، اغلـــن سان-سيمـــون ، بنفس التفوّق في الآراء على معاصريه ، ان الضمانة الوحيدة للتطور السلمـي والازدهار في اوروبا هي التحالف بين فرنسا وانجلترا ، وبين هذين البلديـــن والمانيا . يقيناً انه كان لا بد من قدر كبير من الشجاعة والبصيرة التاريخية لدعـــوة الفرنسيين في عام ١٨١٥ الى التحالف مـع المنتصرين في واترلو (٣٩) .

واذا كنا نجد عند سان-سيمون سعة عبقرية في الآراء ، تتيح لنا ان نستشف فيها بذور الافكار غير الاقتصادية الصرف التي عرضها الاشتراكيون بعده ، ان نرى بذور جميع هذه الافكار تقريباً ، فاننا نجد عند فوريه انتقاداً للنظام الاجتماعي القائم ، انتقاداً يجمع بين حدة الذكاء الفرنسي الاصيل والعمق الكبير في التحليل . فهو يتمسك بتلابيب البرجوازية ، وانبيائها الملهمين ما قبل الثورة ومتملقيها المرتشين مابعد الثورة . ويكشف النقاب بلا رحمة عن بؤس العالم البرجوازي ، المادي والمعنوي ؛ ويقارن هذا البؤس بوعود المنورين السابقين الخلابة : وعودهم بمجتمـــع يسود فيه العقل وحده ، بحضارة توفر السعادة للجميع ، وبآرائهم عن قابلية الانسان اللامتناهية للترقي والاكتمال ؛ ويفضح فراغ تعابير وصيغ الايديولوجيين المعاصرين له الرنانة الزاهية ، ويبين اي واقع بائس يقابل تعابيرهم الرنانة ، ويصب جام سخريته على افلاس هذه التعابير التام . ان فوريه ليس بناقد وحسب ، بل انه ايضاً ، لتفاؤل طبيعته ، هجاء ساخر ، وحتى من اكبر الهجائين في كل العصور . فهو يرسم بكلمات لاذعة ساخرة دقيقة احتيالات

---

* ٣١ آذار (مارس) ١٨١٤ . **الناشر** .

المضاربة التي ازدهرت بعد انحطاط الثورة ، كما يرسم الروح التجارية الخسيسة التي اتصفت بها كل التجارة الفرنسية في زمنه . وانه لاشد لذعاً الانتقاد الذي سلطـــه على الشكـــل البرجوازي للعلاقات الجنسية ووضع المرأة في المجتمع البرجوازي . وهو اول من اعلن ان درجة التحرر العام في كل مجتمع معني تقاس بدرجـة تحرر المرأة . ولكن حيثما يبدو فوريه بكل عظمته ، انمـــا في مفهومه عن تاريخ المجتمع . فهو يقسمه الى اربع مراحل مـــن التطور : الوحشية ، البطريركية ، البربرية ، المدنية ؛ والمرحلة الاخيرة من هذا التطور تطابق عنده ما يسمى اليوم بالمجتمـــع البرجوازي اي النظام الاجتماعي الذي تطور منـــذ القرن السادس عشر . ويبين فوريه ان

«النظام المتمدن يرفع كل رذيلة ، تمشت عليها البربرية ، من النمط البسيط الى نمط مركب ، مزدوج المعنى ، منافق ، ريائي» ،

وان المدنية تتحرك ضمن «حلقة مفرغة» ، ضمن تناقضات تعيد انتاجها بلا انقطاع ، دون ان تتمكن من التغلب عليهـــا ، ولهذا السبب تتوصل دائما الى عكس ما كانت تسعى اليه او ما كانـت تدّعي السعي اليه . فهكذا ، مثلا ،

«ان الفقر ينشأ عن الوفرة نفسها في المدنية» .

وهكذا نرى ان فوريه متمكن من الديالكتيك تمكن معاصره هيغل منه . وخلافاً للتعابير الطنانة حول قابلية الانسان اللامتناهية للترقي والاكتمال ، يؤكد فوريه بصورة ديالكتيكية ايضاً ان لكل طور تاريخي مرحلة صعود تليها مرحلة هبوط ، ويطبق وجهة النظـــر هذه على مستقبل البشرية جمعاء . وكما ان كانط ادخل في علـــم الطبيعة فكرة زوال الكرة الارضية في المستقبـــل ، كذلك ادرج فوريه في مفهوم التاريخ فكرة زوال الانسانية في المستقبل .

وبينا عاصفة الثورة المطهرة تجتاح فرنسا ، كان يجري في انجلترا انقلاب ، اقل صخباً وضجيجاً ، ولكنه ليس اقـــل قوة

وشدة . فان البخار وآلات العمل الجديدة قد حولت المانيفاكتورة الى صناعة كبيرة عصرية ، ونفخت روح الثورة في جميع اسس المجتمع البرجوازي . فسير التطور الكسول في عهد المانيفاكتورة تغير وتحول الى مرحلة حقيقية من العواصف والضغوط في الانتاج . وبسرعة متنامية بلا انقطاع ، انقسم المجتمع الى رأسماليين كبار والى بروليتاريين معدمين ؛ وبينهم ، بدلا من المرتبة المتوسطة المستقرة في الازمنة القديمة ، يعيش الآن حياة غير مستقرة ، جمهور متغير من الحرفيين وصغار التجار ، هذا القسم الاكثر ميوعة من السكان . بيد ان اسلوب الانتاج الجديد لم يكن الا في البداية من مرحلة تطوره الصاعدة ، كان ما يزال اسلوب الانتاج العادي ، الصحيح ، الاسلوب الممكن الوحيد بالنظر الى الظروف القائمة . ومع ذلك ، كان قد ادى الى نشوء مصائب اجتماعية صارخة : تكدس السكان الذين لا ماوى لهم ، في الاطراف الرهيبة القذرة من المدن الكبيرة ؛ انحلال جميع اواصر الاصل الموروثة عن الماضي ، والنمط البطريركي والعائلة ؛ تمديد يوم العمل بشكل رهيب للغاية ، ولا سيما بالنسبة للنساء والاطفال ؛ التفسخ الشامل في معنويات الطبقة الكادحة التي قذف بها فجأة في اوضاع جديدة كل الجدة : من القرية الى المدينة ، من الزراعة الى الصناعة ، من ظروف الحياة المستقرة الى الظروف المتغيرة يومياً وغير المضمونة . وآنذاك ، ظهر مصلح ، ظهر صناعي في التاسعة والعشرين من عمره ، ظهر رجل كان يجمع بين صفاء الطفل ونبله وبين قدرة على قيادة الناس لم يملكها الا قلة من الناس . كان روبرت اوين قد استوعب مذهب المنورين الماديين وتبناه ، وهو المذهب القائل ان طبع الانسان هو ، من جهة ، نتاج تركيبه الجسماني منذ ولادته ، ومن جهة اخرى ، نتاج الظروف التي تحيط به اثناء حياته وبخاصة اثناء مرحلة نموه .

ان معظم اخوته في المنزلة الاجتماعية لم يروا في الثورة الصناعية سوى بلبلة وفوضى ، تتيحان لهم الاصطياد في الماء العكر والاثراء بسرعة . اما هو ، فقد رأى في هذه الثورة الصناعية فرصة مناسبة لادخال النظام في هذه الفوضى ، وذلك بتطبيق فكرته المفضلة . وكان قد قام بتجربة تطبيقها في مانشستر ، في معمل يضم اكثر من ٥٠٠ عامل وكان هو مديره ،وحالفه التوفيق في تجربته هذه . ومن ١٨٠٠ الى ١٨٢٩ كان يدير معملا كبيراً لغزل القطن في نيو-لانارك ، باسكتلنده ، وقد عمل هنا ، بوصفه مديراً وشريكاً ، في نفس الاتجاه ، ولكن بمزيد من الحرية وبنجاح سرعان ما جعل اسمه مشهوراً في اوروبا كلها .فقد حول سكان نيو-لانارك الذين بلغ عددهم تدريجياً ٢٥٠٠ شخص وتألفوا في البداية من عناصر شتى ، معظمها من العناصر المتفسخة المنهارة معنوياتها ، الى مستعمرة نموذجية لا تعرف السكر والبوليس والقضاء الجنائي والدعاوى والجمعيات الخيرية والحاجة الى الاحسان الفردي . وقد توصل الى ذلك لانه وضع الناس في ظروف اجدر بالانسان ، ولانه اعتنى على الخصوص بتربية الجيل الناشئ تربية صالحة . وفي نيو-لانارك اقيمت لاول مرة مدارس للاطفال الصغار وكانت من بنات افكار اوين . كانت هذه المدارس تقبل الاطفال ابتداء من الثانية من العمر ، وفيها كانوا يمضون الوقت بدرجة من المتعة بحيث كان من الصعب اعادتهم الى البيت . وقد خفض اوين ساعات العمل في نيو-لانارك الى ١٠ ساعات ونصف الساعة بينما كان مزاحموه يجبرون العمال على العمل ١٣ و١٤ ساعة في اليوم . وخلال ازمة قطنية توقف الانتاج من جرائها اربعة اشهر ، ظل اوين يدفع لعماله غير المشغولين اجرة كاملة . ومع ذلك زادت قيمة المؤسسة الى اكثر من الضعفين وظلت تدر لاصحابها ، طوال الوقت ، ارباحاً طائلة .

غير ان اوين لم يكتف بكل ذلك . فان ظروف الحيـــاة التي وفرهـــا لعمالـــه كانت ، في نظره ، ابعد من ان تكون جديرة بالانسان . وقد قال :

«كان هؤلاء الناس عبيدي» ،

فالظروف الملائمة نسبياً التي احاط بها عمال نيو-لانارك كانت ما تزال ابعد من ان تتيح تطور طبائعهـــم وعقولهم تطوراً كاملا عقلانياً وابعد بالاحرى من ان تتيح النشاط الحيوي الحر .

«ومع ذلك كان القسم الكادح من هؤلاء الـ ٢٥٠٠ انسان ينتج من الثروة الفعلية للمجتمع قدر ما كان بوسع ٦٠٠٠٠٠ انسان ان ينتجوه منذ اقل من نصف قرن . ولقد تساءلت : اين صار الفرق بين الثروة التي يستهلكها هؤلاء الـ ٢٥٠٠ وبين الثروة التي كان يستهلكها الـ ٦٠٠٠٠٠ ؟»

كان الجواب واضحـــاً . فقد ذهب هذا الفرق لدفع فائدة قدرها ٥ بالمئة لاصحاب المعمل لقاء الرأسمال الموظف في هذا المعمل ، بالاضافة الى ربح زاد على ٣٠٠٠٠٠ جنيه سترليني (٦٠٠٠٠٠٠ مارك) . وما كان صحيحاً بالنسبـــة لمعمل نيو-لانارك كان صحيحاً بالاحرى بالنسبة لجميع معامل انجلترا .

«لولا هذه الثروة الجديدة التي خلقتها الآلات ، لما كان بالامكان خوض الحروب لاسقاط نابليون ، وفي سبيل الحفاظ على مبادئ تنظيم المجتمع الاريستقراطية . والحال ان هذه القوة الجديدة كانت من صنع الطبقة الكادحة» * .

ولذا ، كان ينبغي ان تعود ثمار هذه القوة الى الطبقـــة الكادحة . ان القوى المنتجة الجديدة الجبارة التي لم تقم حتى ذلك

---

* من مذكرة اسمها «الثورة في العقول وفي التطبيق» ، وجهت الى جميع «الجمهوريين الحمر ، الشيوعيين والاشتراكيين في اوروبـــا» ، وأرسلت الى الحكومة الموقتة الفرنسيـــة في عام ١٨٤٨ ، وكذلك الى «الملكة فكتوريا ومستشاريها المسؤولين» .

الا باغناء الاقلية وباستعباد الجماهير ، غدت تكوّن ، بنظر اوين ، الاسس اللازمة لاعادة تنظيم المجتمع ، وكان المطلوب منها ان تعمل فقط في سبيل رفاهية الجميع العامة بوصفها ملك الجميع .

من هذه الاسس العملية الصرف ، التي هي ، اذا جاز القول ، نتيجة حساب تجاري ، ولدت شيوعية اوين . وقد حافظت دائماً وفي كل مكان على طابعها العملي هذا . ففي ١٨٢٣ ، مثلا ، وضع اوين مشروعاً لازالة البؤس الارلندي بانشاء مستعمرات شيوعية ، وارفق هذا المشروع بحسابات مفصلة حول الرأسمال الذي يجب توظيفه والنفقات السنوية ، والمداخيل المحتملة . وقد وضع اوين مشروعه النهائي للنظام المقبل بكل التفاصيل التكنيكية ، بما فيها المسقط الافقي والواجهة والمنظر من الجو ، بقدر من المعرفة العملية ، الى حد اننا ، اذا سلمنا بطريقته لتحويل المجتمع ، لا نجد الا تفاصيل قليلة جداً يمكن الاعتراض عليها ، حتى من وجهة نظر الاختصاصي .

كان انتقال اوين الى الشيوعية نقطة الانعطاف في حياته . فطالما اقتنع بدور المحب والمحسن للبشر ، كان جناه الثروة والشهرة ، والاجلال والتحبيذ . كان الرجل الاوفر شعبية في اوروبا . فلم يكن اخوته في المنزلة الاجتماعية وحدهم يصغون اليه ، بل كان رجال الدولة والملوك ايضاً يصغون اليه بعطف . ولكن ما ان تقدم بنظرياته الشيوعية حتى تغير الامر تماماً . كان يرى ان ثلاث عقبات كبيرة تحول دون تحويل المجتمع ، هي الملكية الخاصة ، والدين ، والشكل الحالي للزواج . وعندما اخذ يقارع هذه العقبات ، كان يعرف ما ينتظره : نبذه عن المجتمع الرسمي ، وفقدان مركزه الاجتماعي . ولكن هذه الاعتبارات لم تستطع ان توقف اوين ولم تضعف عزيمته في هجومه الباسل . وكل ما توقعه حصل . فقد اقصي عن المجتمع الرسمي ، وحاكت

الصحافة حوله مؤامرة الصمت وضحى بكل ثروته في تجاربه الشيوعية الفاشلة في اميركا ، وكان نصيبه منها الخراب والافلاس . فتوجه مباشرة الى الطبقة العاملة وواصل نشاطه في بيئة هذه الطبقة مدة ثلاثين سنة اخرى . وكانت جميع الحركات الاجتماعية التي تحققت لمصلحة الطبقة العاملة في انجلترا وجميع منجزاتها الحقيقية ترتبط باسم اوين . ففي ١٨١٩ ، بعد خمس سنوات من جهوده ، سن اول قانون يحدد ساعات عمل النساء والاطفال في المعامل . ورأس اول مؤتمر اتحدت فيه تريديونيونات انجلترا كلها في نقابة عامة واحدة كبيرة (٤٠) . وبمثابة تدابير انتقالية تؤدي الى النظام الاجتماعي الشيوعي التام ، نظّم ، من جهة ، جمعيات الانتاج والاستهلاك التعاونية التي اثبتت على الاقل عملياً ، فيما بعد ، انه من الممكن تماماً الاستغناء عن التجار والصناعيين على السواء ؛ ومن جهة اخرى ، اسواقاً عمالية من اجل تبادل منتجات العمل بوساطة اوراق العمل النقدية التي كانت وحدة قيمتها ساعة من وقت العمل (٤١) . كان لا بد لهذه الاسواق ان تمنى حتماً بالاخفاق ، ولكنها كانت سابقة لمصرف التبادل (٤٢) الذي قال به برودون فيما بعد بوقت طويل ، وكانت تختلف عن هذا المصرف بكونها لم تعرض بوصفها الدواء الشافي الشامل لجميع الشرور الاجتماعية ، بل بوصفها الخطوة الاولى نحو تحويل المجتمع بصورة اكثر جذرية بكثير .

وكان نمط تفكير الطوبويين يعلو وقتاً طويلا على الآراء الاشتراكية في القرن التاسع عشر وما يزال متفوقاً جزئياً حتى الآن . فحتى الاونة الاخيرة ظل جميع الاشتراكيين الفرنسيين والانجليز متمسكين به وكذلك الشيوعية الالمانية السابقة بمن فيها ويتلينغ . فالاشتراكية بنظرهم جميعاً هي التعبير عن حقيقة مطلقة ، هي التعبير عن العقل والعدالة ؛ ويكفي اكتشافها حتى تقهر

العالم كله بقوتها نفسها . ولكن بما ان الحقيقة المطلقة ليست رهناً بالزمان والمكان وتطور الانسانية التاريخي ، فان معرفة زمان ومكان اكتشافها امر متروك للصدفة . هذا فضلا عن ان مؤسسي المدارس لا ينظرون النظرة نفسها الى الحقيقة المطلقة والعقل والعدالة ؛ فالشكل الخاص الذي تبرز فيه الحقيقة المطلقة والعقل والعدالة عند كل من مؤسسي المدارس مشترط بطريقة تفكيره الذاتية وشروط معيشته ومدى معارفه ودرجة تطور فكره . فاذا ما تجابهت مثل هذه الحقائق المطلقة ، فلا يمكن حل النزاع فيما بينها الا بالتخفيف من حدة تناقضاتها . ولذا لم يكن بالامكان ان يؤدي كل ذلك الا الى اشتراكية اختيارية غامضة لا تزال سائدة فعلا حتى الآن في اذهان معظم العمال الاشتراكيين في فرنسا وانجلترا . وهذه الاشتراكية الاختيارية عبارة عن خليط من ملاحظات انتقادية اكثر اعتدالا ، وموضوعات ومفاهيم اقتصادية يقول بها مختلف مؤسسي الشيع حول المجتمع المقبل ـ خليط يسمح بوجود تلاوين مختلفة للغاية ، ومن السهل الحصول عليه خصوصاً وان عناصره تفقد في مجرى المجادلات والمناظرات العديدة زواياها الحادة والناتئة كالحصى في مسيل من الماء . فلاجل تحويل الاشتراكية الى علم كان ينبغي قبل كل شيء وضعها على صعيد واقعي .

٢

وفي خلال ذلك ، نشأت الى جانب الفلسفة الفرنسية من القرن الثامن عشر وعلى اثرها ، الفلسفة الالمانية الحديثة التي تتوجت بهيغل . ومأثرتها الكبرى انها عادت الى الديالكتيك بوصفه الشكل الاعلى للفكر . لقد كان الفلاسفة اليونانيون القدماء جميعهم

ديالكتيكيين عفويين وبالفطرة ، وقد سبق لارسطو ، وهو اوسعهم معرفة واطلاعاً ، ان حلل الاشكال الاساسية للفكر الديالكتيكي . اما الفلسفة الجديدة ، رغم ان الديالكتيك وجد له فيها ممثلين لامعين (مثلا ، ديكارت وسبينوزا) ، فقد كانت تغرق اكثر فاكثر ، ولا سيما تحت تاثير الفلسفة الانجليزية ، في طريقة التفكير المسماة بالطريقة الميتافيزيائية ، التي سادت بوجه الحصر تقريباً بين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، على الاقل في مؤلفاتهم الفلسفية الصرف . الا انهم استطاعوا هم ايضاً ، في خارج نطاق الفلسفة بحد ذاتها ، ان ينتجوا تحفاً ديالكتيكية ، ـ ولن نذكر منها غير «ابن اخي رامو» لديدرو و«الخطاب حول منشأ التفاوت بين الناس واسسه» لروسو ـ ، وفيما يلي نعطي لوحة موجزة عن جوهر هاتين الطريقتين في التفكير .

عندما نخضع الطبيعة ، او تاريخ البشر ، او نشاطنا الروحي ، للمراقبة الفكرية ، فان ما يبدو امامنا بادىء بدء ، انما هو صورة تشابك غير متناه لاتصالات وترابطات ، حيث لا يبقى اي شيء ساكناً ، غير متغير ، بل حيث كل شيء يتحرك ، ويتحول ، ويصير ، ويزول . وعلى هذا النحو ، نرى اولا لوحة عامة لا تزال تتراجع فيها التفاصيل بهذا القدر او ذاك الى المؤخرة ، فنولي الحركة والانتقالات والروابط من الانتباه اكثر مما نوليه **لما** يتحرك وينتقل ويترابط . ان هذه الطريقة في رؤية العالم ، هي طريقة بدائية ، ساذجة ، ولكنها صحيحة في الاساس ، انها طريقة الفلسفة اليونانية القديمة . وكان هيراكليت اول من صاغها بوضوح : كل شيء موجود وغير موجود ، لان كل شيء **يتحول** ، لان كل شيء في تغير ابدي ، في صيرورة ابدية ، في زوال ابدي . ولكن ، رغم ان هذه الطريقة في رؤية العالم تعبر بصورة صحيحة عن الطابع العام لكل لوحة الظاهرات ، الا انها

غير كافية لتفسير التفاصيل التي تتكون منها هذه اللوحة ؛ وطالما لا نعرف هذه التفاصيل ، لا نرى اللوحة العامة بوضوح . فلاجل معرفة هذه التفاصيل ، نضطر الى ان ننتزعها من علاقتها الطبيعية او التاريخية ، والى ان نحللها كلا بمفرده ، من حيث صفاتهـا واسبابها ومفاعيلها ، الخ . وتلك هي ، قبل كل شيء ، مهمة علم الطبيعة والدراسة التاريخية ، اي مهمة فرعين من العلم لم يكونا يشغلان ، لاسباب جد وجيهة ، الا المرتبة الثانية عند اليونانيين في الازمنة الكلاسيكية ، اذ كان ينبغي على هؤلاء بادئ بدء ان يجمعوا المواد اللازمة . فلم يكن من الممكن الشروع بالاختيار الانتقادي والمقارنة ، والتقسيم بالتالي الى طبقات واصناف وانواع الا بعد ان يتم ، بدرجة معينة ، جمع المواد المتعلقة بعلم الطبيعة والتاريخ . ولهذا فان بواكير دراسة الطبيعة دراسة دقيقة لم يطورها ، لاول مرة ، الا اليونانيون في العهد الاسكندري (٤٣) ، وفيما بعد ، العرب في القرون الوسطى . اما بداية علم الطبيعة الحقيقي فلا تعود الا الى النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وقد تقدم مذ ذاك بسرعة متزايدة . وقد كان تقسيم الطبيعة الى اجزائها المنفردة ، وتقسيم مختلف الظاهرات والاشياء الطبيعية الى فئات معينة ، ودراسة التركيب الداخلي للاجسام العضوية حسب اشكالها التشريحية المتنوعة ، كل هذا كان الشرط الاساسي للنجاحات الهائلة التي احرزت ، خلال الاربعمئة سنة الاخيرة ، في ميدان معرفة الطبيعة . ولكن طريقة الدراسة هذه خلفت لنا عادة دراسة الاشياء والظاهرات الطبيعية منعزلة ، منفردة ، خارج علاقتها الكبرى العامة ، كما خلفت ، بالتالي ، عادة النظر الى الاشياء والظاهرات ، لا من حيث حركتها ، بل من حيث سكونها ، لا من حيث انها متغيرة في الاساس ، بل من حيث هي مستقرة ابداً ودائماً ، لا من حيث حياتها ، بل من حيث موتها . وعندما

حدث ان انتقلت طريقة النظر هذه من العلوم الطبيعية الى الفلسفة بفضل باكون ولوك ، ادت هذه الطريقـــة الى ضيق الافق الذي امتازت به القرون الاخيرة ، ادت الى طريقة التفكير الميتافيزيائية.

ان الاشياء وانعكاساتها الفكرية ، اي المفاهيم ، هي ، بنظر الميتافيزيائي ، اغراض منفردة ، ثابتة ، جامدة ، اعطيت مرة واحدة وبصورة نهائية ، اغراض تنبغي دراستهـا الواحد بعد الآخر ، الواحد دون الآخر . وهو يفكر بموضوعات متضـادة مجردة من كل موضوعة وسيطة . انه يقول : «نعم ـ نعم ، لا ـ لا ؛ وما زاد على ذلك ـ فهو من الشرير» * . وحسب رأيه ، يكون الشيء موجوداً او غير موجود ، ولا يمكن للشيء ان يكون في آن واحد هو بالذات وشيئاً آخر ؛ والسلبي والايجابي ينفي احدهما الآخر ، بصورة مطلقة . والسبب والمفعول في تضاد جامد احدهما للآخر . ان طريقة التفكير هذه تبدو لنا ، من اول نظرة ، في اقصى حدود المعقول ، لانها طريقة تلازم العقل البشري السليم . ولكن العقل البشري السليم ، هذا الرفيق الجدير بالاحترام البالغ ما دام قابعاً في عقر داره ، يمر بمغامرات طريفـة جداً ما ان يتجرأ ويخرج الى ارحاب الدراسة . ورغم ان طريقة التفكير الميتافيزيائية طبيعية ، وحتى ضرورية في عدد من الميادين المتفاوتة الاتساع وفقاً لطابع الغرض ، الا انها تصل ، عاجلا ام آجلا ، الى حد تغدو معه ، اذا تجاوزته ، وحيدة الجانب ، ضيقة الافق ، مجردة ، وتضيع في تناقضات لا حل لهـا . وهي ، اذ تتامل الاشيـاء المنفردة ، لا ترى علاقاتها المتبادلة ، واذ تتامل وجودها لا ترى صيرورتها وزوالها ، وتنسى حركتها لانها ساكنة ، فالاشجار تمنعها

---

* **الكتاب المقدس** . العهد الجديد . انجيل متى ، الفصل ٥ ، الآية ٣٧ . **الناشر** .

من رؤية الغابة . اننا نعرف ، مثلا ، في الحياة اليومية ونستطيع ان نقول ، بما فيه الكفاية من الثقة ، اذا كان حيوان ما موجوداً ام لا . ولكن التعمق في البحث يرينا ان هذه القضية هي في كثير من الحالات ، من اشد القضايا تعقيداً وغموضاً ، كما يعرف ذلك جيداً جداً الحقوقيون الذين بذلوا عبثاً قصارى جهدهم لايجاد حد عقلاني يصبح فيما وراءه القضاء على طفل في بطن امه جريمة قتل . كذلك يستحيل تحديد لحظة الوفاة لان علم الفيزيولوجيا يثبت ان الوفاة ليست بظاهرة فورية ، آنية ، بل عملية طويلة الامد . كذلك كل كائن عضوي هو ، في كل لحظة معينة ، ذاته وكائن آخر ؛ فهو في كل لحظة ، يهضم مواد يتلقاها من الخارج ويفرز مواد اخرى ، وفي كل لحظة ، تموت خلايا من جسمه وتولد خلايا اخرى ؛ وبعد فترة قد تطول او تقصر ، تتجدد مادة جسمه بكليتها ، وتحل محلها ذرات اخرى من المادة . ولهذا السبب كان كل كائن عضوي هو دائماً ذاته وغير ذاته . واذا نظرنا الى الامور بمزيد من الامعان ، تبين لنا ان قطبي تضاد واحد — الايجابي والسلبي مثلا — لا ينفصل احدهما عن الآخر بقدر ما هما متضادان ، وانهما يتداخلان ويتشابكان رغم **كل** تضادهما ، ثم نرى كذلك ان السبب والمفعول تصوران لا قيمة لهما الا عند تطبيقهما على حالات منعزلة معينة ؛ ولكن ، ما ان ننظر الى هذه الحالة المنعزلة في علاقاتها العامة مع باقي الكون ، حتى يختلطان ويتشابكان في تفاعل متسلسل شامل ، حيث السبب والمفعول يغيران مكانهما باستمرار ، حيث ما كان سبباً في مكان معين ولحظة معينة يغدو مفعولا في مكان آخر ولحظة اخرى ، والعكس بالعكس .

ان جميع هذه التفاعلات وجميع طرائق التفكير هذه لا تدخل في نطاق الفكر الميتافيزيائي . اما الديالكتيك ، الذي يتلخص الامر

الجوهري بالنسبة له في انه يرى الى الاشياء وانعكاساتها الذهنية، بصورة رئيسية، من حيث صلاتها المتبادلة ومن حيث تشابكها، من حيث حركتها، من حيث صيرورتها وزوالها ـ فان التفاعلات المذكورة اعلاه لا تثبت، بالعكس، الا طريقته الخاصة في الدراسة. والطبيعة هي محك الديالكتيك؛ وينبغي علينا ان نقول ان العلوم الطبيعية الحديثة قدمت لهذا المحك مواد جيدة تتزايد يوماً بعد يوم، وانها اثبتت بواسطة هذه المواد ان الديالكتيك، لا الميتافيزياء، هو الذي، في آخر تحليل، يسود في الطبيعة، وان الطبيعة لا تتحرك في حلقة وحيدة الشكل الى الابد وتتكرر ابداً ودائماً، بل تمر بتاريخ فعلي. وهنا تجدر الاشارة قبل كل شيء الى داروين الذي سدد ضربة في غاية الشدة الى النظرة الميتافيزيائية الى الطبيعة حين برهن ان العالم العضوي الحالي كله، اي النباتات والحيوانات، وبالتالي الانسان ايضاً، هو نتاج تطور مستمر منذ ملايين السنين. ولكن، لما كان علماء الطبيعة الذين تعلموا كيف يفكرون بصورة ديالكتيكية يعدون على الاصابع، فان هذا النزاع بين النتائج الحاصلة وبين طريقة التفكير التقليدية يفسر تماماً الفوضى البالغة التي تسود في نظريات علم الطبيعة وتبعث اليأس في نفوس الاساتذة والطلاب على السواء، في نفوس الكتاب والقراء على السواء.

وهكذا، فان تصور الكون وتطوره وتطور الانسانية وكذلك انعكاس هذا التطور في عقول الناس تصوراً دقيقاً لا يمكن القيام به الا عن طريق الديالكتيك، الا عن طريق اجراء مراقبة دائبة للتفاعلات العامة بين الصيرورة والزوال، بين التقدم والانحطاط. في هذا السبيل بالذات، دخلت الفلسفة الالمانية الحديثة منذ البدء. وقد بدأ كانط نشاطه العلمي بان حول النظام الشمسي الذي قال به نيوتن، النظام الثابت، السرمدي، وغير المتغير ـ

بعد الدفعة الاولى المزعومة ـ الى عملية تاريخية : الى عملية نشوء الشمس وجميع الكواكب من كتلة ضبابية في دوران . وفي الوقت نفسه ، قادة نشوء النظام الشمسي الى الاستنتاج انه لا بد لهذا النظام ان يزول يوماً من الايام . وقد اثبت لابلاس صحة وجهة النظر هذه بصورة رياضية ، بعد نصف قرن ؛ ثم جاء المطياف ، بعد نصف قرن آخر ، فاثبت وجود كتل غازية متأججة مماثلة في الفضاء ، ومختلفة من حيث درجة التكاثف .

وهذه الفلسفة الالمانية الحديثة وجدت خاتمتها في منهج هيغل ، الذي تتلخص مأثرته الكبرى في انه صور العالم بأسره ، الطبيعي والتاريخي والروحي ، للمرة الاولى ، على انه عملية ، اي حركة دائمة وتحول دائم وتطور دائم ، وفي انه قام بمحاولة اكتشاف الصلة الداخلية لهذه الحركة وهذا التطور . ومن وجهة النظر هذه ، لم يعد التاريخ البشري يبدو خليطاً وفوضى من اعمال العنف الخرقاء التي لا تستحق غير الشجب والنسيان السريع امام محكمة العقل الفلسفي الذي نضج الآن ، بل برز ، بالعكس ، بمثابة تطور الانسانية نفسها ، وغدت قضية الفكر تتقوم الآن في اتباع سير هذا التطور في جميع مراحله المتتالية عبر جميع انحرافاته وتعرجاته وفي تقديم الدليل على وجود قانونه الداخلي بين جميع المصادفات الظاهرية .

الاّ يكون منهج هيغل قد حل هذه القضية التي طرحها امام نفسه ، فذلك امر لا يهمنا ؛ فان مأثرته التاريخية هي انه طرح هذه القضية . ان هذه القضية هي من القضايا التي لن يستطيع اي فرد ان يحلها بمفرده . وبالرغم من ان هيغل كان ، مع سان-سيمون ، اوفر اهل زمانه معرفة وعلماً واطلاعاً ، الا انه كان مع ذلك ضيق الافق ، اولا من حيث مدى معارفه المحدود بالضرورة ، وثانياً من حيث مدى معارف ونظرات عصره ،

المحدودة ايضاً سعة وعمقاً . وفضلا عن ذلك ، كان هيغل مثالياً ، اي ان افكار رأسنا لم تكن ، في نظره ، انعكاسات للاشياء والعمليات الواقعية مجردة نوعا ، بل ، بالعكس كانت الاشياء وتطورها ، في نظر هيغل ، انعكاسات متجسدة «لفكرة» ما كانت موجودة قبل نشوء العالم في مكان ما . وبذلك قلب كل شيء رأساً على عقب وشوهت تماماً الصلة الفعلية بين ظاهرات الكون . ولهذا كان لا بد لمنهج هيغل ، رغم تفهمه بفائق الصحة والعبقرية بعض الصلات الفردية بين الظاهرات ، من ان يبدو حتماً في كثير من جوانبه ، للاسباب المنوه بها ، متكلفاً ، مصطنعاً ، ملفقاً ، اي مشوهاً . فكان منهج هيغل ، بوصفه منهجاً ، طرحاً هائلا ، ولكنه الطرح الاخير من نوعه . وفضلا عن ذلك ، كان هذا المنهج ينطوي على تناقض داخلي لا شفاء له . فمن جهة ، كانت مقدمته الجوهرية تتلخص في النظر الى تاريخ الانسانية بوصفه عملية تطور لا يمكن لها ، بحكم طبيعتها بالذات ، ان تبلغ خاتمتها العقلية في اكتشاف حقيقة مطلقة مزعومة ؛ ولكن منهجه يدّعي ، من جهة اخرى ، بأن يكون خاتمة هذه الحقيقة المطلقة . ان منهجاً لمعرفة الطبيعة والتاريخ يشمل كل شيء وموضوعاً مرة واحدة بصورة نهائية يتناقض مع قوانين الفكر الديالكتيكي الاساسية ، الامر الذي لا ينفي ، بل يفترض ، بالعكس ، ان معرفة العالم الخارجي قاطبة ، بدأب وانتظام ، يمكن لها ان تخطو خطوات الجبابرة الى امام من جيل الى جيل .

ان ادراك الواقع التالي وهو ان المثالية الالمانية القائمة هي كاذبة تماماً ، قد ادى ، لا محالة ، الى المادية ؛ ولكن تجب الاشارة الى انها لم تكن مجرد مادية القرن الثامن عشر الميتافيزيائية ، والميكانيكية بوجه الحصر . فخلافاً لمجرد نبذ التاريخ السابق كله بصورة ثورية ساذجة ، ترى المادية الحديثة في

التاريخ عملية تطور الانسانية ، وتعتبر انه يترتب عليها ان تكتشف قوانين هذه العملية . لقد كان فرنسيو القرن الثامن عشر ، وكذلك هيغل ، يتصورون الطبيعة كلا لا يتغير ، كلا يتحرك ضمن حلقات ضيقة تبقى هي ذاتها ، كلا ذا اجرام سماوية خالدة ، كما يعلم نيوتن ، وذا انواع لا تتغير من الكائنات العضوية ، كما يعلم لينه . وخلافاً لهذا التصور عن الطبيعة ، تعمم المادية الحديثة المكتسبات الاخيرة في العلوم الطبيعية التي تقول ان للطبيعة ايضاً تاريخها في الزمن ، وان الاجرام السماوية تنشأ وتزول مثلما تنشأ وتزول جميع الانواع من الاجسام العضوية التي تعيش في هذه الاجرام اذا توافرت الشروط الملائمة ، وان حلقات الدوران ، اذا وجدت ، تتسع الى ما لا يقاس . والمادية الحديثة ، في الحالتين ، ديالكتيكية من حيث الجوهر والاساس ، ولا تحتاج الى فلسفة قائمة فوق جميع العلوم الاخرى . وما ان يضطر كل علم من العلوم الى تحديد مكانه في الصلة العامة للاشياء والمعارف عن هذه الاشياء ، حتى يغدو العلم الخاص بهذه الصلة العامة لا لزوم له . وحينذاك لا يبقى، من الفلسفة السابقة كلها ، غير مذهب واحد مستقل هو مذهب الفكر وقوانينه ـ المنطق الاستقرائي والديالكتيك . اما الباقي كله فيدخل في العلوم الايجابية عن الطبيعة والتاريخ .

وبينا الانقلاب في المفهوم عن الطبيعة لم يستطع ان يجري الا بقدر ما كانت الابحاث تقدم المواد الايجابية لاجل المعرفة ـ طرأت احداث تاريخية قبل ذلك بكثير ، ادت الى انقلاب حاسم في المفهوم عن التاريخ . ففي ١٨٣١ ، نشبت اول انتفاضة عمالية في ليون ؛ ومن ١٨٣٨ الى ١٨٤٢ ، بلغت اول حركة وطنية عمالية ، حركة الشارتيين الانجليز ، الذروة . وبرز النضال الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية على مقدمة المسرح في تاريخ اكثر

البلدان الاوروبية تطوراً ، وذلك بقدر ما كانت تتطور فيها ، من جهة ، الصناعة الكبيرة ، ومن جهة اخرى ، السيطرة السياسية التي احرزتها البرجوازية حديثاً . وجاءت الوقائع تظهر بصورة اوضح فاوضح كل كذب مذهب الاقتصاد السياسي البرجوازي القائل بوحدة مصالح الرأسمال والعمل ، والانسجام الشامل ، ورفاه الشعب العام المتولدين عن حرية المزاحمة . ولم يكن بالمستطاع تجاهل كل هذه الوقائع ، ولا تجاهل الاشتراكية الفرنسية والانجليزية التي كانت ، رغم نواقصها وعيوبها ، التعبير النظري عن هذه الوقائع . ولكن المفهوم المثالي القديم الذي كان ما يزال قائما حول التاريخ ، لم يكن يعرف ، لا النضال الطبقي القائم على مصالح مادية ، ولا اية مصلحة مادية ؛ ولم يذكر الانتاج وجميع العلاقات الاقتصادية الا بصورة عابرة ، الا بوصفها العناصر الثانوية « لتاريخ المدنية » .

وقد فرضت الوقائع الجديدة القيام بدراسة جديدة لكل التاريخ الماضي ، وحينذاك تبين ان التاريخ الماضي **كله** ، باستثناء الحالة البدائية ، لم يكن سوى تاريخ النضال بين الطبقات ، وان هذه الطبقات الاجتماعية المتناضلة كانت ، في كل لحظة معينة ، نتاجات علاقات الانتاج والتبادل ، اي نتاجات العلاقات **الاقتصادية** في عصرها ؛ وتبين ، بالتالي ، ان التركيب الاقتصادي للمجتمع في كل مرحلة معينة يشكل الاساس الفعلي الذي يفسر به ، في نهاية الامر ، كل البناء الفوقي من المؤسسات الحقوقية والسياسية والآراء الدينية والفلسفية وغيرها من الآراء الملازمة لهذه المرحلة التاريخية المعنية . وقد حرر هيغل مفهوم التاريخ من الميتافيزياء ، وجعله ديالكتيكياً ، ولكن فهمه هو للتاريخ كان من حيث الجوهر مثالياً . اما الآن ، فقد طردت المثالية من ملجئها الاخير ، من مفهوم التاريخ ؛ ووضع مفهوم مادي للتاريخ ، ووجد

السبيـــل لتفسير تفكير الناس بطريقة حياتهـــم ، بدلا من تفسير حياتهم بطريقة تفكيرهم ، كما جرى حتى ذلك الحين .

ولهذا لم تعد تبدو الاشتراكية الآن اكتشافـاً حققه من قبيل الصدفـة هذا العقل العبقري او ذاك ، بل صارت تبدو نتيجـــة ضرورية للنضال بين الطبقتين الناشئتين تاريخياً ، البروليتاريا والبرجوازية . ولم تبق مهمتها ابتداع نظام اجتماعي على اكثر ما يمكن من الكمال ، بل غدت دراســة التطور الاقتصادي التاريخي الذي ادى بالضرورة الى نشوء هاتين الطبقتين والى نشوء الصراع بينهما ، وايجــاد الوسائل في الوضع الاقتصادي الناجـم عن هذا التطور ، من اجل تسويـــة النزاع . ولكن الاشتراكية السابقة لم تكن متلائمة مع هذا الفهم المادي للتاريخ مثلما كان فهم الماديين الفرنسيين للطبيعة غير متلائـم مع الديالكتيك ومع علم الطبيعـة الحديث . صحيح ان الاشتراكيـــة السابقة كانت تنتقد اسلوب الانتاج الرأسمالي القائم وعواقبــه ، ولكنهــا لم تكن تستطيع ان تفسره ، ولذا لم يكن بوسعها ان تتغلب عليه ـ فلم يكن بوسعهـــا الا ان تعلن انه غير صالح اطلاقاً . ولكن ، بقدر ما كان يشتد استياء هذه الاشتراكية لاستثمار الطبقة العاملـة المحتم في ظل اسلوب الانتاج هذا ، بقدر ما كان يزداد عجزها عن تفسير قوام هذا الاستثمار واسباب نشوئه تفسيراً واضحاً . ولكن القضيـة كانت تقوم اولا في تفسير حتمية نشوء اسلوب الانتاج الرأسمالي في علاقته التاريخية ، واثبات ضرورته في مرحلة تاريخية معينة ، وبالتالي حتمية زواله ؛ وكانت القضية تقوم ثانيـاً في الكشف عن الطابـع الداخلي الذي يصف اسلوب الانتاج هذا والذي لا يـزال مخفياً . وقد تم ذلك باكتشاف **القيمة الزائدة** . فقد اعطي الدليل على ان الاستئثار بالعمل غير المدفوع الاجر هو الشكل الاساسي لاسلوب الانتاج الرأسمالي ولاستثمار العمال الملازم له ؛ وعلى ان

الرأسمالي ، حتى حين يشتري قوة العمل حسب قيمتها الكاملة في السوق بوصفها بضاعة ، انما يبتز مع ذلك منها قدراً من القيمة يفوق ما دفعه في سبيل الحصول عليها ، وعلى ان هذه القيمة الزائدة تشكل ، في آخر المطاف ، مجموع القيم التي تنجم عنها كمية الرأسمال النامية بلا انقطاع ، والمتراكمة في ايدي الطبقات المالكة . وعلى هذا النحو ، وجدت عملية الانتاج الرأسمالي تفسيراً لها ، وكذلك انتاج الرأسمال .

ان هذين الاكتشافين العظيمين ، ونعني بهما المفهوم المادي عن التاريخ ، والكشف عن سر الانتاج الرأسمالي بواسطة القيمة الزائدة ، انما نحن مدينون بهما **لماركس** . فبفضل هذين الاكتشافين اصبحت الاشتراكية علماً ، وتتلخص القضية الآن ، قبل كل شيء ، في صياغته باطراد بجميع تفاصيله وعلاقاته المتبادلة .

ان الفهم المادي للتاريخ ينطلق من الموضوعة القائلة ان انتاج المنتجات أولا ، ثم تبادلها ، يشكلان اساس كل نظام اجتماعي ، وانه في كل مجتمع معني يدخل حلبة التاريخ يتحدد توزيع المنتوجات ، ومعه انقسام المجتمع الى طبقات او الى فئات ، بما يجري انتاجه وبكيفية انتاجه وبكيفية تبادل هذه المنتوجات . ولذا اذا شئنا ان نجد الاسباب التي تحدد التغيرات الاجتماعية والانقلابات السياسية ، وجب علينا ان نبحث عنها ، لا في رؤوس الناس ، لا في معرفتهم المتنامية عن الحقيقة والعدالة الخالدتين ، بل في تحولات اسلوب الانتاج والتبادل ؛ اي انه يجب ان نبحث عن هذه الاسباب ، لا في **الفلسفة** ، بل في **اقتصاد** العهد المعني . واذا ما اخذ المرء يفهم ان المؤسسات الاجتماعية القائمة

هي غير عقلانية وغير عادلة ، وان «ما كان من صنع العقل غدا مخالفاً للعقل ، وان ما كان نعمة غدا عذاباً» * فان هذا يعني انه قد طرأت ، خلسة ، تحولات على اساليب الانتاج واشكال التبادل لم يعد ينطبق عليها النظام الاجتماعي المكيف وفقاً لاوضاع اقتصادية قديمة . وينجم عن ذلك ايضاً انه ينبغي لعلاقات الانتاج المتحولة أن تنطوي ، بدرجات متفاوتة من التطور ، على الوسائل اللازمة لازالة ما برز من شرور . ولذا لا ينبغي **اختراع** هذه الوسائل من الرأس ، بل ينبغي **اكتشافها** بواسطة الرأس في وقائع الانتاج المادية الموجودة .

فما هو اذن موقف الاشتراكية الحديثة ؟

يعترف الجميع تقريباً ان النظام الاجتماعي الحالي هو من صنع الطبقة السائدة حالياً ، من صنع البرجوازية . فان اسلوب الانتاج الخاص بالبرجوازية ، والذي اطلق عليه ماركس اسم اسلوب الانتاج الرأسمالي ، لم يكن يتلاءم مع امتيازات المناطق ، والفئات الاجتماعية ، ومع العلاقات الشخصية المتبادلة في النظام الاقطاعي . فحطمت البرجوازية النظام الاقطاعي ، لكي تقيم ، على انقاضه ، النظام الاجتماعي البرجوازي ، وسيادة حرية المزاحمة ، وسيادة حرية التنقل ، وسيادة المساواة امام القانون بين مالكي البضائع اي بكلمة سيادة جميع لطافات البرجوازية . ومذ ذاك ، افتتح الطريق امام تطور اسلوب الانتاج الرأسمالي تطوراً حراً . وما ان حول البخار وآلات العمل الجديدة المانيفاكتورة القديمة الى صناعة كبيرة حتى اخذت القوى المنتجة ، التي نشأت تحت قيادة البرجوازية ، تتطور بسرعة واتساع لا سابق لهما . وكما ان

---

* **غوته** . «فاوست» ، القسم الاول ، المشهد الرابع («مكتب فاوست») . **الناشر** .

المانيفاكتورة ، والحرف التي تطورت بتاثيرها دخلت ، في حينها ، في نزاع مع القيود الاقطاعية الناجمة عن نظام الحرف ، كذلك تدخل الصناعة الكبيرة ، حين يكتمل تطورها ، في نزاع مع الاطار الضيق الذي يحصرها فيه اسلوب الانتاج الرأسمالي . وها ان القوى المنتجة الجديدة قد تجاوزت اشكال استثمارها البرجوازية . وهذا النزاع بين القوى المنتجة واسلوب الانتاج ليس نزاعاً متولداً في رؤوس الناس ـ كالنزاع بين الخطيئة الاصلية والعدالة الالهية ، ـ فهو موجود في الواقع ، موضوعي ، خارج عنا ، مستقل حتى عن ارادة وسلوك الناس الذين اوجدوه . وليست الاشتراكية الحديثة سوى انعكاس هذا النزاع الواقعي في الفكر ، انعكاسه المثالي ، اولا ، في رؤوس ابناء الطبقة التي تتألم مباشرة من هذا النزاع ونعني بها الطبقة العاملة .

ما هو قوام هذا النزاع ؟

في القرون الوسطى ـ قبل ظهور الانتاج الرأسمالي ، كان الانتاج الصغير قائماً في كل مكان ، واساسه ملكية العاملين الخاصة لوسائل انتاجهم : زراعة صغار الفلاحين ، الاحرار او الاقنان ، في الريف ، والحرف في المدن . كانت وسائل العمل ـ الارض والادوات الزراعية ، المشاغل والادوات الحرفية ـ تخص الافراد ولم تكن مكيفة الا للاستعمال الفردي ، ولذا كانت بالضرورة ، صغيرة ، حقيرة ، محدودة ؛ ولكن لهذا السبب على وجه الدقة كانت تخص بعامة المنتج . فكان لا بد من مركزة وسائل الانتاج هذه الصغيرة ، المبعثرة وتكبيرها ، وتحويلها الى دوافع جبارة حديثة للانتاج ـ وذلك ، على وجه الدقة ، كان الدور التاريخي الذي اضطلع به اسلوب الانتاج الرأسمالي ، ومخرجته الى المسرح ، البرجوازية . اما كيف قامت البرجوازية بهذا الدور تاريخياً ، ابتداء من القرن الخامس عشر ، في درجات الانتاج الثلاث المختلفة : التعاون البسيط ،

المانيفاكتورة ، الصناعة الكبيرة ـ فهو وارد بجميع تفاصيله في القسم الرابع من كتاب ماركس «رأس المال» . ولكن البرجوازية ، كما اثبت ماركس في هذا القسم ايضـــا ، لم تستطع ان تحول وسائل الانتاج المحدودة هذه الى قوى منتجة جبارة دون ان تحولها من وسائل انتاج يستعملهـــا الافـراد الى وسائل **اجتماعية** للانتاج يستعملها **جمهور من الناس بصورة مشتركة** . فاخلى دولاب المغزل ، والنول ، ومطرقـــة الحداد المكان لآلـــة الغزل وللنول الميكانيكي وللمطرقـــة البخارية ؛ واخلى المشغل الفردي المكان للمعمل الذي يتطلب عمل المئات والالوف من العمال بصورة مشتركة . وكمـا تحولت وسائل الانتاج ، تحول الانتاج نفسه من جملة من الاعمال الفردية الى جملة من الاعمال الاجتماعية ، وتحولت المنتوجات من منتوجات مختلف الافراد الى منتوجات اجتماعية . فان الخيطـان والاقمشة والسلع المعدنيـــة التي اخذت تخرج الآن من المصانع والمعامل كانت نتاج عمل مشترك قام به عدد كبير من العمال يبذلون جهودهم على صنعها في تعاقب معين حتى انجازها . وليس في وسع احد ان يقول عنها : « **انا** الذي صنعت هذا ، وهذا نتاجي **انا**» .

ولكن حيث كان التقسيم العفوي للعمل في المجتمع قد نشـأ تدريجياً بدون اي منهاج ، وكان الشكل الاساسي للانتـــاج ، كان هذا التقسيم للعمل يضفي حتماً على المنتوجات شكل **بضائع** يتيح تبادلها بالشراء والبيع للمنتجين الفرديين تلبية مختلف حاجاتهم . هكذا كان الحال في القرون الوسطى . فان الفلاح ، مثلا ، كان يبيع الحرفي المنتوجات الزراعية ويشتري منه المصنوعات الحرفيـــة ، والى هذا المجتمـــع من المنتجين الفرديين ، من منتجي البضائع ، تسرب اسلوب الانتـــاج الجديد . فاقام في وسط تقسيـــم العمل العفوي ، **غير المخطط** ، السائد في المجتمع باسره ، تقسيم العمل **المخطط** ، المنظم في كل مصنع بمفرده ؛ والى جانب انتاج المنتجين

الفرديين ، ظهر الانتاج **الاجتماعي** . وكانت منتوجات هذا وذاك تباع في الاسواق نفسها ، وبالتالي باسعار متساوية تقريباً على كل حال . ولكنه تبين ان التنظيم المخطط اقوى من تقسيم العمل العفوي ؛ ففي المصانع التي لجأت الى العمل الاجتماعي كانت كلفة الانتاج اقل مما لدى صغار المنتجين المتشتتين . فاقصي انتاج المنتجين الفرديين من ميدان بعد آخر ، وطبع الانتاج الاجتماعي بطابعه الثوري اسلوب الانتاج القديم كله . ولكن هذا الطابع الثوري للانتاج الاجتماعي ظل غير معروف الى حد انه أُدخل بالعكس كوسيلة لانماء وتشجيع الانتاج البضاعي . وقد انبثق على صلة مباشرة ببعض من حوافز التاج وتبادل البضائع كانت قائمة قبل انبثاقه ، وهي الرأسمال التجاري والحرف والعمل المأجور . وبما انه ظهر كشكل جديد من اشكال الانتاج البضاعي ، فان اشكال التملك الملازمة للانتاج البضاعي ظلت سارية المفعول تماماً بالنسبة له ايضاً .

في ظل شكل الانتاج البضاعي الذي تطور في القرون الوسطى ، لم يكن من الممكن حتى ان يدور الكلام لمعرفة من ذا الذي يجب ان تعود اليه منتوجات العمل . فعلى العموم كان يصنعها المنتج الفردي من خامات تخصه وكان احيانا كثيرة ينتجها بنفسه وبادواته هو وبيديه هو او بايدي افراد عائلته . فلم يكن ثمة داع يدعو هذا المنتج الى تملك منتوجه ، لأن منتوجه كان يخصه بطبيعة الحال . ولذا كان حق ملكية المنتوج يرتكز **على العمل الشخصي** . وحتى حيث كانوا يلجأون الى معونة الغير ، كانت هذه المعونة لا تضطلع ، على العموم ، الا بدور ثانوي وكانت تلقى احياناً كثيرة ، علاوة على الاجرة ، مكافأة اخرى : فان المتدرب والصانع كانا لا يعملان من أجل المأكل والاجرة بقدر ما كانا يعملان من اجل تحصيل المهنة واعداد نفسيهما لنيل لقب المعلم . ولكن آنذاك

بدأ تمركز وسائل الانتاج في المشاغل الكبيرة والمانيفاكتورات ، وتحولها من حيث جوهر الامر الى وسائل انتاج اجتماعية . بيد انهم ظلوا يعتبرون وسائل الانتاج والمنتوجات الاجتماعية هذه ، كأنما بقيت كما من قبل ، وسائل انتاج ومنتوجات الافراد . فمن قبل كان مالك وسائل العمل يستملك المنتوج لأنه كان ، على العموم ، منتوجه بالذات ، ولأن اضافة عمل الغير كانت استثنائية . اما الآن ، فان مالك وسائل العمل ظل يستملك المنتوجات رغم انها لم تكن نتاج **عمله هو** ، بل نتاج **عمل الغير** فقط . وهكذا لم يكن يستملك منتوجات العمل الاجتماعي اولئك الذين حركوا بالفعل وسائل الانتاج وصنعوا بالفعل هذه المنتوجات ، بل كان يستملكها **الرأسمالي** . لقد غدت وسائل الانتاج والانتاج بالذات اجتماعية من حيث الاساس . ولكنها ظلت خاضعة لشكل تملك يفترض وجود الانتاج الشخصي للمنتجين الفرديين ، ويملك فيه بالتالي كل فرد منتوجه ويحمله الى السوق . وقد خضع اسلوب الانتاج لهذا الشكل من التملك رغم انه حطم اساس هذا التملك * . ولكن في هذا التناقض الذي يضفي على اسلوب الانتاج الجديد طابعه الرأسمالي ، **تكمن بذور جميع التناقضات الحالية** . وبقدر ما كانت

---

* لا داعي الى ان نوضح هنا انه اذا كان **شكل** التملك يبقى كما كان عليه ، فان **طابع** التملك يتعرض من جراء العملية الموصوفة اعلاه لتاثير ثوري لا يقل عن التاثير الذي يتعرض له طابع الانتاج نفسه . ان تملكي لمنتوجي بالذات وتملكي لمنتوج عمل الغير ، انما هما بالطبع نوعان مختلفان جداً من التملك . ونلاحظ عرضاً ان العمل الماجور الذي ينطوي على بذور اسلوب الانتاج الراسمالي كله ، كان قائماً منذ قديم الازمنة ؛ فنحن نجده بصورة منعزلة وصدفية في سياق مئات السنين الى جانب الرق . ولكن هذه البذور لم يكن بوسعها ان تتطور وتصبح اسلوب الانتاج الراسمالي الا عندما نشات الممهدات التاريخية اللازمة .

تزداد سيطرة اسلوب الانتاج الجديد في جميع فروع الانتاج الرئيسية وجميع البلدان السائدة اقتصادياً ، وبقدر ما كانت تزيح انتاج المنتجين الفرديين الى حد حصره في بقايا تافهة لا وزن لها ، **بقدر ما كان يشتد بالضرورة التنافر بين الانتاج الاجتماعي والتملك الراسمالي .**

ان الرأسماليين الاوائل قد وجدوا ، كما سبق ورأينا ، شكل العمل المأجور قائماً . ولكن العمل المأجور لم يكن سوى شغل استثنائي ، ثانوي ، اضافي ، انتقالي . فالحارث ، الذي كان يشتغل من حين الى آخر بالمياومة ، يملك قطعة ارضه التي تكفيه ، في أسوأ الحالات ، لسد حاجاته . وكانت الحرف منظمة بصورة يصبح معها صانع اليوم معلم الغد . ولكن ، ما ان غدت وسائل الانتاج اجتماعية ، وما ان تمركزت في ايدي الرأسماليين ، حتى تغير كل ذلك . فان قيمة وسائل انتاج ومنتوجات المنتج الصغير الفردي اخذت تهبط أكثر فاكثر ، ولم يبق له من مخرج غير ان يعمل اجيراً في خدمة الرأسمالي . والعمل المأجور ، الذي كان فيما مضى استثناء واضافياً ، امسى قاعدة كل الانتاج وشكله الاساسي : كان شغلا ثانوياً فيما مضى ، اما اليوم فقد استأثر بكل وقت عمل المنتج . والاجير الموقت غدا اجيراً كل حياته . ناهيك عن ان جمهور العمال الاجراء مدى الحياة قد ازداد زيادة خارقة من جرّاء تطورات حدثت في آن واحد هي انهيار النظام الاقطاعي ، وانحلال حواشي الاسياد الاقطاعيين ، وطرد الفلاحين من مزارعهم ، الخ .. وتمت القطيعة بين وسائل الانتاج المتمركزة في ايدي الرأسماليين من جهة ، وبين المنتجين الذين لم يبق لهم ما يملكونه سوى قوة عملهم ، من جهة اخرى . **وهكذا ظهر التناقض بين الانتاج الاجتماعي والتملك الراسمالي بوصفه تناحراً بين البروليتاريا والبرجوازية .**

لقد رأينا آن اسلوب الانتاج الرأسمالي تسرب الى وسط مجتمع متألف من منتجي البضائع ، من منتجين فرديين ، كانت صلاتهم الاجتماعية فيما بينهم تقوم في تبادل منتجاتهم . بيد ان كل مجتمع يقوم على انتاج البضائع يتصف بكون المنتجين يفقدون سيطرتهم على علاقاتهم الاجتماعية المتبادلة . فكل فرد ينتج على حدة ، بوسائل الانتاج العرضية التي يستطيع الحصول عليها ، لاجل حاجاته الفردية الى التبادل . وما من احد يعرف اي كمية من المنتوج الذي ينتجه ستظهر في السوق ، واي عدد من الشارين يمكنه ، بعامة ، ان يجد في السوق ؛ وما من احد يعرف ما اذا كانت ثمة حاجة فعلية الى المنتوج الذي ينتجه وما اذا كان سيستعيد نفقات انتاجه ، وما اذا كان سيبيعه على وجه العموم . فالفوضى تسود في الانتاج الاجتماعى . ولكن الانتاج البضاعي ، ككل شكل آخر من اشكال الانتاج ، له قوانينه الخاصة والملازمة له ، وهذه القوانين تشق الطريق لنفسها رغم الفوضى وبواسطة الفوضى . وهي تظهر في الشكل الوحيد الباقي للصلة الاجتماعية ، اي في التبادل ـ وتؤثر على المنتجين الفرديين كقوانين قسرية للمزاحمة . والمنتجون انفسهم يجهلون هذه القوانين في البدء ، ويحتاجون الى تجربة طويلة لكي يتوصلوا الى اكتشافها الواحد بعد الآخر . فهي تشق الطريق لنفسها ، اذن ، دون معرفة المنتجين وضدهم ، كقوانين طبيعية لشكل انتاجهم مفعولها اعمى . فالمنتوج يسيطر على المنتجين .

في مجتمع القرون الوسطى ولا سيما في القرون الاولى كان الانتاج موجهاً اساساً نحو الاستهلاك الشخصي ، وكان لا يلبي على الاغلب الا حاجات المنتج الشخصية وحاجات عائلته . وحيث كانت ثمة علاقات تبعية شخصية ، كما في الريف مثلا ، كان الانتاج يسد ايضاً حاجات الاقطاعي ولذا لم يكن ثمة تبادل ولم تكن المنتجات

ترتدي شكل بضائع . كانت عائلة الفلاح تنتج تقريبا كل ما تحتاجه ، سواء الادوات والالبسة ام الاغذية . ولم تبدأ تنتج من اجل البيع الا حينما توصلت الى انتاج فائض عن استهلاكها وعن الفرائض العينية المترتبة عليها للاقطاعي . وهذا الفائض المعروض للتبادل الاجتماعي ، المعد للبيع ، غدا بضاعة . صحيح ان الحرفيين في المدن قد اضطروا منذ البدء الى الانتاج بقصد التبادل ، ولكنهم هم ايضاً كانوا يسدون القسم الاكبر من حاجات استهلاكهم بعملهم الشخصي : فقد كانوا مالكي احواض للخضراوات وحقول صغيرة ؛ وكانوا يرسلون ماشيتهم ترعى في الغاب المشاعي حيث كانوا ايضاً يحتطبون للتدفئة والبناء ؛ وكانت النساء يغزلن الكتان والصوف الخ .. وهكذا نرى ان الانتاج بقصد التبادل ، ان الانتاج البضاعي كان ما يزال في المهد . ولذا كان التبادل محدوداً ، والسوق ضيقة ، واسلوب الانتاج مستقراً ؛ وكانت العزلة المحلية عن العالم الخارجي ، وكان الاتحاد داخل النطاق المحلي ، فكان المارك في الريف وكانت الحرف في المدن .

ومع ازدياد الانتاج البضاعي ولا سيما مع ظهور اسلوب الانتاج الرأسمالي ، شرعت قوانين الانتاج البضاعي ، التي كانت راقدة قبل ذاك ، تفعل فعلها بمزيد من السفور والتسلط . فتراخت الروابط القديمة ، وتحطمت الحواجز السابقة ، واخذ المنتجون يتحولون اكثر فاكثر الى منتجي بضائع منعزلين ومستقلين . وتكشفت فوضى الانتاج الاجتماعي وراحت تتفاقم اكثر فاكثر . ولكن الاداة الرئيسية التي استخدمها اسلوب الانتاج الرأسمالي لتشديد هذه الفوضى في الانتاج الاجتماعي ، انما كانت على وجه الدقة عكس الفوضى : كانت تنظيم الانتاج الذي غدا اجتماعياً ، والذي ينمو بلا انقطاع في كل مؤسسة انتاجية بمفردها . وبواسطة هذا التنظيم

وضع اسلوب الانتـــاج الرأسمالي حداً للاستقرار السابق الهادئ . ففي كل فرع صناعي دخله ، طرد منه اساليب الانتاج السابقة . وحيثما استولى على حرفة حطمهـــا . وغدا ميدان العمل ميدان معركة . وجاءت الاكتشافـــات الجغرافية الكبيرة (٤٤) ومـــا اعقبها من استعمار توسع ميدان التصريف مرات عديدة وتسرّع تحول الحرف الى مانيفاكتورات . ولم يحتدم النضال بين منتجي نفس المحلة الفرديين وحسب ، بل ان النضـــالات المحلية نمت ايضـــاً وتحولت الى نضالات بين الامـــم ، فكانت الحروب التجارية (٤٥) في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وفي آخر المطاف ، اضفت الصناعة الكبيرة ونشوء السوق العالمية طابعـــاً شاملا على هذه النضالات ، ودمغاها بطابع من العنف لم يسمع بمثله من قبل . واذا امتلاك الشروط الملائمة للانتاج ، طبيعية كانت ام اصطناعية ، هو الذي يبت في مسألة وجود رأسماليين منفردين ، كما يبت في مسألة وجود فروع انتاجية وبلدان برمتها . فيزاح المغلوبون ويبعدون بلا شفقـــة . وذلك هو الصراع من اجل البقاء ، الذي قال به داروين ، وقد نقل من الطبيعة الى المجتمع وطبع بطابع من العنف المتفاقم . واذا سلوك الحيوانات الطبيعي يبدو كأنه آخر ما توصل اليه التطور البشري . واتخذ التناقض بين الانتاج الاجتماعي والتملك الرأسمالي **شكل تضاد بين تنظيم الانتـــاج في كل مصنع على حدة وفوضى الانتـــاج في المجتمع بأسره .**

فضمن هذين الشكلين من التناقض الملازم لاسلـــوب الانتاج الرأسمالي بحكم منشئه ، يتحرك اسلوب الانتاج هذا ، دون ان يخرج منه ، ويرسم هذه «الحلقة المفرغة» التي اكتشفهـــا فيه فوريه . ولكن فوريه لم يكن ليستطيع ، بالطبـــع ، ان يرى في زمنه ان هذه الحلقة تتقلص بصورة تدريجية ، وان حركـــة

الانتاج ترسم بالاحرى خطاً حلزونياً ينتهي عند مركز دورانه ، شأنها شأن حركة الكواكب . ان القوة المحركة الكامنة في فوضى الانتاج الاجتماعية هي التي تحول ، اكثر فاكثر ، اغلبية الناس الى بروليتاريين ، وهذه الجماهير البروليتارية هي التي ستضع بدورها ، في نهاية الامر ، حداً لفوضى الانتاج . وان نفس القوة المحركة الكامنة في فوضى الانتاج الاجتماعية هي التي تحول امكانية ادخال تحسينات لامتناهية على الآلات المستعملة في الصناعة الكبيرة الى قانون الزامي يفرض على كل رأسمالي صناعي ، تحت طائلة الخراب ، ان يحسن ويتقن آلاته بلا انقطاع . ولكن اتقان الآلات يجعل كمية معينة من العمل الانساني امراً نافلا . واذا كان ادخال وتكثير الآلات قد اديا الى الاستعاضة عن الملايين من ذوي العمل اليدوي بعدد قليل من العمال الذين يخدمون الآلات ، فان اتقان الآلات يؤدي الى ازاحة عدد متزايد ابداً من ذوي العمل الآلي ، ويؤدي ، في نهاية الامر ، الى ايجاد عدد متزايد من الايدي العاملة تحت التصرف ، تفيض عن متوسط حاجة الرأسمال اليها . ويكوّن جمهور العمال العاطلين جيشاً صناعياً احتياطياً حقيقياً كما سميته في ١٨٤٥* يكون تحت تصرف الانتاج في الفترة التي يشتغل فيها بملء طاقته ويرمى به الى الشارع حين تنفجر الازمة المحتومة التي تعقب كل انتعاش ؛ وهذا الجيش الذي هو ، في كل زمن ، بمثابة غل في عنق الطبقة العاملة اثناء النضال الدائر بينها وبين الرأسمال ، يقوم بدور منظم للاجرة يبقيها في مستوى منخفض وفقاً لحاجة الرأسمال .

---

* «حالة الطبقة العاملة في انجلترا» ، ص ١٠٩ (راجع كارل **ماركس وفريدريك انجلس** . المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٢ ، ص ٣٢٠ . **الناشر** .)

وينجم بالتالي ، على حد قول ماركس ، ان الآلة تصبح امضى سلاح في يد الرأسمال في نضاله ضد الطبقة العاملة ، وان وسيلة العمل تنتزع على الدوام من العامل وسائل معيشته ، وان نتاج العامل يمسي اداة لاستعباده * . وينجم ايضاً ان التوفير في وسائل العمل يتصف منذ البداية باشد ما يكون من تبديد قوة العمل وباوقح ما يكون من التقتير على شروط العمل العادية الطبيعية ** ، وان الآلة ، هذه الوسيلة الاقوى لاختصار وقت العمل ، تصبح آمن وسيلة لتحويل كل حياة العامل وكل حياة عائلته الى وقت عمل كامن من اجل زيادة قيمة الرأسمال . ولذلك يؤدي العمل الزائد الذي يقوم به قسم من الطبقة العاملة الى بطالة قسمها الباقي بطالة تامة ، كما ان الصناعة الكبيرة ، التي تجوب الكرة الارضية سعياً وراء المستهلكين ، تفرض على الجماهير العمالية في بلادها حداً ادنى من العيش يتاخم المجاعة ، وتحطم بالتالي بيديها سوقها الداخلية . «ان القانون الذي يوازن بين فيض السكان النسبي او الجيش الصناعي الاحتياطي وبين مقادير وتقدم تراكم الرأسمال ، يسمر العامل على لوحة الرأسمال بصورة اشد وامتن مما سمر بها هيفايستوس بروميثه بمطرقته على الصخرة . وهذا القانون يؤدي الى تراكم البؤس بقدر تراكم الرأسمال . ولذا فان تراكم الثروة في قطب يعني في الوقت نفسه تراكم الفقر والم العمل والعبودية والجهل والخشونة والانحطاط المعنوي في القطب المضاد اي عند الطبقة التي **تنتج منتوجها بالذات بوصفه رأسمالا**» (ماركس . «رأس المال» ، ص ٦٧١) (٤٦) .

---

* راجع **كارل ماركس** . «رأس المال» ، المجلد الاول . **الناشر** .

** راجع **كارل ماركس** . «رأس المال» ، المجلد الاول ، ص ٤٧٣ . **الناشر** .

ولئن تطلب من اسلوب الانتاج الرأسمالي توزيعاً آخر للمنتجات ، كأنك تطلب من قطبي بطارية كهربائية الا يفسخا الماء، ويرسلا الاوكسيجين الى القطب الايجابي والهيدروجين الى القطب السلبي ، ما دام القطبان موصولين .

لقد رأينا كيف ان امكان تحسين الآلات الحديثة يتحول ، اذا ما استغل لآخر درجة ، وتحت ضغط فوضى الانتاج في المجتمع ، الى قانون الزامي يجبر الرأسمالي الصناعي على اتقان آلاته باستمرار وعلى انماء مردودها بلا انقطاع . ان مجرد الامكانية المتوافرة للرأسمالي الصناعي لتوسيع انتاجه تتحول ، بالنسبة اليه ، الى قانون آخر الزامي . فان قوة الامتداد والتوسع الهائلة الكامنة في الصناعة الكبيرة ، والتي ليست قوة امتداد وتوسع الغاز سوى لعبة اطفال بالنسبة اليها ، تتخذ الآن شكل **حاجة** الى توسيع هذه الصناعة ، كيفياً وكمياً ، تتحدى كل مقاومة . والمقاومة هنا هي الاستهلاك ، التصريف ، الاسواق لمنتجات الصناعة الكبيرة . ولكن قدرة الاسواق على الامتداد والتوسع ، من حيث المدى والكثافة ، تسيرها قوانين مختلفة وذات مفعول اقل حزماً بكثير . فان توسع الاسواق لا يمكن ان يلحق بتوسع الانتاج . ولذا كان الاصطدام محتوماً لا مناص منه ، وبما ان هذا الاصطدام لا يستطيع حل النزاع الا اذا حطم الاسلوب الرأسمالي للانتاج ، فانه يصبح دورياً . ان الانتاج الرأسمالي يولد «حلقة مفرغة» جديدة .

فمنذ ١٨٢٥ ، حين انفجرت اول ازمة عامة ، والعالم الصناعي والتجاري كله ، والانتاج والتبادل عند جميع الشعوب المتمدنة وكذلك عند الشعوب التابعة لها والبربرية الى هذا الحد او ذاك ، تختل وتنتقض مرة كل عشر سنوات تقريباً . فتركد التجارة ، وتزدحم الاسواق بالمنتوجات الكاسدة ، وتختفي النقود من التداول ، ويتوقف التسليف ، وتغلق المصانع ابوابها ، ويحرم

العمال من وسائل المعيشة لانهم انتجوا من هذه الوسائل اكثر من اللزوم بكثير ، ويتوالى الافلاس تلو الافلاس ، والبيع الاجباري تلو البيع الاجباري . وخلال سنوات ، يستمر الكساد ، وتتبدد القوى المنتجة والمنتجات وتتلف بكميات كبيرة ، الى ان تصرّف مخزونات البضائع بفضل تخفيض الاسعار الى هذا الحد او ذاك ، الى ان يستعيد الانتاج والتبادل سيرهما بصورة تدريجية . وشيئاً فشيئاً تتسارع الوتيرة ، وتغدو خبباً ، والخبب الصناعي يصبح عدواً ، ويبلغ السرعة القصوى لسباق حواجز عام تشترك فيه الصناعة والتجارة والتسليف والمضاربة ، وبعد ان يقوم باخطر القفزات ، يهوى في آخر الامر من جديد في هوة الازمة . ودائماً ينبغي البدء من جديد . لقد اجتزنا خمس ازمات منذ ١٨٢٥ وها نحن نجتاز السادسة في الوقت الحاضر (في ١٨٧٧) . وقد برز طابع هذه الازمات بوضوح بالغ الى حد ان فوريه وصفها كلها بتسميته الازمة الاولى crise pléthorique ، ازمة وفرة وغزارة .

ففي الازمات ، ينفجر بعنف التناقض بين الانتاج الاجتماعي والتملك الرأسمالي . فيتوقف تبادل البضائع موقتاً ، وتصبح وسيلة التداول ، العملة ، عقبة امام التداول ؛ وتنقلب جميع قوانين الانتاج وتبادل البضائع رأساً على عقب . ويبلغ التصادم الاقتصادي ذروته : **ان اسلوب الانتاج يتمرد على اسلوب التبادل .**

لقد رأينا ان التنظيم الاجتماعي للانتاج في داخل المعامل قد تطور الى حد انه لم يعد يتلاءم مع فوضى الانتاج في المجتمع القائمة الى جانب هذا التنظيم والمسيطرة عليه ؛ وهذا الواقع يفرض نفسه على فهم الرأسماليين انفسهم وذلك من جراء مركزة الرساميل بعنف خلال الازمات ، مركزة تتحقق عن طريق خراب عدد كبير من كبار الرأسماليين وخراب عدد اكبر من صغارهم . واذا جهاز اسلوب الانتاج الرأسمالي برمته يتهاوى تحت ضغط

القوى المنتجة التي خلقها هذا الجهاز بنفسه . فلم يعد بامكانه تحويل كل كتلة وسائل الانتاج الى رأسمال ؛ فتبقى دون استعمال، ولهذا السبب يضطر الجيش الصناعي الاحتياطي ، هو ايضاً ، الى التعطل . وسائل انتاج ، وسائل معيشة ، عمال تحت تصرف الرأسمال ــ جميع عناصر الانتاج والرخاء العام موجودة بوفرة . ولكن «الوفرة تصبح مصدر العوز والبؤس» (فوريه) لانها هي التي تمنع وسائل الانتاج والمعيشة من ان تتحول الى رأسمال . ذلك لان وسائل الانتاج في المجتمع الرأسمالي لا يمكن ان تعمل الا بعد ان تتحول الى رأسمال ، الى وسيلة لاستثمار قوة عمل الانسان . ان ضرورة تحويل هذه الوسائل الى رأسمال تنتصب كشبح بين العمال من جهة وبين وسائل الانتاج والعيش من جهة اخرى . وهي وحدها التي تمنع الاتصال بين روافع الانتاج المادية وبين روافع الانتاج الشخصية ؛ وهي وحدها التي تمنع وسائل الانتاج عن العمل وتحرم العمال من العمل والعيش . وهكذا تبين اذن ، اولا ، ان اسلوب الانتاج الرأسمالي غدا عاجزاً عن ان يقود بعد اليوم القوى المنتجة . وتبين ، ثانياً ، ان هذه القوى المنتجة نفسها تندفع بالحاح متزايد ابداً نحو الغاء هذا التناقض ، نحو تحرير نفسها من كل ما يلازمها بوصفه رأسمالا ، **نحو الاعتراف الفعلي بطابعها كقوى منتجة اجتماعية .**

ان رد الفعل هذا من جانب القوى المنتجة النامية بلا انقطاع ، ضد صفتها كرأسمال ، ان هذه الضرورة المتعاظمة القاضية بالاعتراف بطابعها الاجتماعي ، تجبر طبقة الرأسماليين انفسهم اكثر فاكثر ، وبقدر ما تسمح به العلاقات الرأسمالية ، على اعتبار القوى المنتجة قوى منتجة اجتماعية . وان فترات الحمى الصناعية مع ما يرافقها من تضخيم التسليف الى الحد الاقصى ، وكذلك الازمات نفسها التى تحطم مؤسسات رأسمالية كبيرة ، تؤدي الى

شكل من اضفاء الطابع الاجتماعي على كميات كبيرة من وسائل الانتاج نجده في مختلف الانواع من الشركات المساهمة . فان بعضاً من وسائل الانتاج ووسائط المواصلات هذه ، قد بلغت درجة من الضخامة تنفي ، كالسكك الحديدية مثلا ، كل شكل آخر من اشكال الاستثمار الرأسمالي . ولكن هذا الشكل يصبح غير كاف هو ايضاً ، عند درجة معينة من التطور : فان جميع المنتجين الكبار في الفرع الصناعي نفسه في البلد المعني يتحدون في «تروست» واحد ، في اتحاد ، بقصد ضبط الانتاج . فهم يحددون مجمل ما يجب انتاجه ويوزعونه فيما بينهم ، ويفرضون سعر البيع الذي يقررونه سلفاً . ولكن لما كانت هذه التروستات تتفسخ بمعظمها لدن اول عقبة في اعمالها ، فانها تدفع بالتالي الى اضفاء صفة الملكية الاجتماعية بمزيد من التركيز : فان الفرع الصناعي يتحول برمته الى شركة مساهمة عملاقة واحدة موحدة ، وتخلي المزاحمة داخل البلد المكان لاحتكار هذه الشركة داخل البلد المعني . هكذا حدث في عام ١٨٩٠ لانتاج القلى الانجليزي ، اذ انتقل ، بعد اندماج المصانع الكبرى الـ٤٨ كلها ، الى يد شركة واحدة يديرها مركز واحد ويبلغ رأسمالها ١٢٠ مليون مارك .

وفي ظل التروستات ، تتحول المزاحمة الحرة الى احتكار ، ويستسلم الانتاج غير المخطط في المجتمع الرأسمالي امام الانتاج المخطط في المجتمع الاشتراكي المقبل . صحيح ان ذلك يتحقق بادئ الامر لما فيه خير ومصلحة الرأسماليين وحدهم . ولكن الاستثمار بشكله هذا يزداد وضوحاً الى حد انه لا بدّ له ان ينهار . وما من شعب يسلم زمناً طويلا بانتاج تشرف عليه التروستات ، واستثماراً سافراً وقحاً للمجتمع بأسره من قبل حفنة ضئيلة من الافراد يعيشون من قص الكوبونات .

وعلى كل حال ، يترتب * في آخر الامر على الممثل الرسمي للمجتمع الرأسمالي ، الدولة ، ان يتسلم قيادة الانتاج ، ســـواء أكانت هناك تروستات ام لا . هذه الضرورة ، ضرورة التحويل الى

---

* اقول : «يترتب» لان تحويل وسائل الانتاج او المواصلات الى ملكية الدولة لن يكون تقدما اقتصاديا ، لن يكون خطوة جديدة في الطريق الى امتلاك المجتمع لجميع القوى المنتجة الا حين تصبح وسائل الانتاج او المواصلات كبيرة **فعلا** الى حد ان يغدو من المتعذر على الشركات المساهمة ان تديرها ، الا حين يصبح تحويلها الى ملكية الدولة ضرورة **اقتصادية** لا مناص منها ، حتى وان قامت به الدولة العصرية . ولكنه ظهر في الآونة الاخيرة ، منذ ان اندفع بيسمارك في طريق الاستدالة (التحويل الى ملكية الدولة) ، نوع خاص من الاشتراكية المزيفة ينحط في بعض الاماكن الى ضرب فريد من الاستخذاء الاختياري ، ويعلن قطعا وصراحة ان **كـــل** تحويل ، وان كان بيسماركيا ، لوسائل الانتاج الى ملكية الدولة هو تحويل اشتراكي . فاذا كان احتكار الدولة للتبغ يعني الاشتراكية ، فلا ريب انه يجب بالتالي تصنيف نابوليون ومترنيخ في عداد مؤسسي الاشتراكية . وعندما اقدمت الحكومة البلجيكية على بناء السكك الحديدية الكبيرة بنفسها لاعتبارات سياسية ومالية عادية تماما وعندما حوّل بيسمارك الى ملكية الدولة اهم السكك الحديدية البروسية دون اي مبرر اقتصادي ، بل لمجرد سهولة تنظيمها واستخدامها في زمن الحرب ، ولاجل تاديب موظفي السكك الحديدية وتحويلهم الى قطيع مطيع يصوّت الى جانب الحكومة ، ولا سيما لاجل تامين مصدر جديد للدخل ، مستقل عن البرلمان ، — فان كل هذا لم يكن على الاطلاق خطوة نحو الاشتراكية ، لا مباشرة ولا غير مباشرة ، لا واعية ولا غير واعية . والا ، كان لا بد من الاقرار بان Seehandlung الملكي (٤٧) والمانيفاكتورة الملكية لانتاج البورسلين وحتى مشاغل الخياطة في السرايا في الجيش او حتى الاستدالة التي اقترحها بكل جد احد الاذكياء في الثلاثينيات في عهد فريدريك غليوم الثالث . . . لبيوت الدعارة ، — هي مؤسسات اشتراكية .

ملكية الدولة ، تبرز اولا بالنسبة لوسائط المواصلات الكبيرة : البريد والبرق والسكك الحديدية .

واذا كانت الازمات قد اثبتت عجز البرجوازية عن قيادة القوى المنتجة الحديثة بعد اليوم ، فان تحول المؤسسات الكبيرة للانتاج ووسائل المواصلات الى شركات مساهمة وتروستات والى ممتلكات للدولة يبين ان البرجوازية قد غدت من نوافل الامور في هذا المجال . فان جميع وظائف الرأسماليين الاجتماعية يقوم بها الآن مستخدمون اجراء . ويقتصر دور الرأسماليين الاجتماعي على قبض الواردات وقص الكوبونات ، واللعب في البورصة ، حيث يتنازعون بعضهم بعضاً رساميلهم . فيما مضى ، كان اسلوب الانتاج الرأسمالي يزج بالعمال في خضم الجيش الصناعي الاحتياطي ؛ اما الآن ، فانه يزج بالرأسماليين ايضاً ، ولكن ليس بعد في هذا الجيش ، بل في فئة السكان الزائدين .

ولكن ، لا انتقال القوى المنتجة الى ايدي الشركات المساهمة والتروستات ولا تحولها الى ملكية الدولة يقضيان على صفتها الرأسمالية . وهذا الامر جلي تماماً بالنسبة للشركات المساهمة والتروستات . فالدولة الحديثة ليست سوى الهيئة التي يخلقها المجتمع البرجوازي لنفسه لكي تصون جميع الشروط الخارجية العامة لاسلوب الانتاج الرأسمالي من تطاولات العمال والرأسماليين الفرديين على السواء . ان الدولة الحديثة ، اياً كان شكلها ، هي ، في الاساس ، آلة رأسمالية ، هي دولة الرأسماليين ، هي الرأسمالي الجماعي المثالي . وكلما استأثرت الدولة بالقوى المنتجة ، كلما تحولت الى رأسمالي جماعي واستثمرت عدداً اكبر من المواطنين . وسيبقى العمال عمالا اجراء ، بروليتاريين . فالعلاقات الرأسمالية لا تزول ، بل ، بالعكس ، تتفاقم وتبلغ الذروة . فاذا بلغت الذروة ، انقلبت وهوت . ان تملك الدولة للقوى المنتجة لا يحل النزاع ،

بل ينطوي على وسيلة شكلية لحله ، على امكانية لحله .

وهذا الحل لا يمكن ان يكون سوى الاعتراف العملي بطابع القوى المنتجة الحالية الاجتماعي ، اي بجعل اسلوب الانتاج والتملك والتبادل منطبقاً مع الطابع الاجتماعي لوسائل الانتاج . ولن يبلغ المجتمع هذا الهدف الا اذا اقدم علناً ، ودون لف ودوران ، على امتلاك القوى المنتجة التي بلغت حداً من القوة لا تتحمل معه اية ادارة اخرى غير الادارة الاجتماعية . ان الطابع الاجتماعي الذي تتصف به وسائل الانتاج والمنتجات ، والذي يصوّب اليوم رأس حربته ضد المنتجين انفسهم ، ويهز اسلوب الانتاج والتبادل بصورة دورية شاقاً لنفسه طريقاً كقانون من قوانين الطبيعة يفعل فعله بصورة عمياء ، عنيفة ومدمرة ، ـ ان هذا الطابع الاجتماعي سيستغله آنذاك المنتجون بكامل المعرفة والوعي وسيتحول من سبب لظواهر التشوش والازمات الدورية الى اقوى رافع للانتاج بالذات .

ان القوى الاجتماعية تتصرف تماماً كقوى الطبيعة ، فهي قوى عمياء ، هوجاء ، مدمرة ما دمنا لا نعرفها ولا نحسب لها الحساب . اما متى عرفناها وفهمنا فعلها واتجاهها وتاثيرها ، فحينئذ لا يتوقف الا علينا ان نخضعها اكثر فاكثر لارادتنا وان نبلغ بفضلها اهدافنا . وهذا يصح ، بصورة خاصة ، على القوى المنتجة الجبارة الحالية . فما دمنا نرفض بعناد ان نفهم طبيعتها وصفتها ـ وهذا الفهم يناهضه اسلوب الانتاج الرأسمالي والمدافعون عنه ـ فان هذه القوى المنتجة تعمل بالرغم منا ، وضدنا ، وتسيطر علينا ، كما بينا آنفاً بالتفصيل . اما حين تفهم طبيعتها ، فانه يمكن ان تتحول في ايدي المنتجين المتعاونين من سيدات مستبدات الى خادمات وديعات . والفرق هنا كالفرق بين قوة الكهرباء المدمرة في برق العاصفة وبين الكهرباء المروضة في جهاز

التلغراف والقوس الكهربائي ، والفرق بين الحريق وبين النار حين تجعل في خدمة الانسان . وان الوقوف من القوى المنتجة الحالية موقفاً يتفق وطبيعتها بعد معرفتها ، في آخر المطاف ، يعني ان فوضى الانتاج الاجتماعية يحل محلها تنظيم للانتاج مبرمج اجتماعياً وفقاً لحاجات المجتمع ، كما لحاجات كل فرد . وهكذا ، ان طريقة التملك الرأسمالية التي يستعبد فيها المنتوج المنتج اولا ، ثم المتملك نفسه ، يستعاض عنها بطريقة جديدة لتملك المنتوجات تقوم على طبيعة وسائل الانتاج الحديثة نفسها : من جهة ، تملك اجتماعي مباشر كوسيلة للمحافظة على الانتاج ولتطويره ، ومن جهة اخرى ، تملك فردي مباشر كوسيلة للعيش والتمتع .

وبقدر ما يحوّل اسلوب الانتاج الرأسمالي اكثر فاكثر السواد الاعظم من السكان الى بروليتاريين ، يخلق القوة التي لا بد ان تهلك هلاكاً او ان تقوم بهذا الانقلاب . وبقدر ما يجبر اسلوب الانتاج الرأسمالي اكثر فاكثر على تحويل وسائل الانتاج الكبرى ، التي جعلت ملكيتها اجتماعية ، الى ملكية للدولة ، يشير بنفسه الى الطريق اللازم اتباعه للقيام بهذا الانقلاب . **فبعد ان تستولي البروليتاريا على سلطة الدولة تحول ، قبل كل شيء ، وسائل الانتاج الى ملكية الدولة** . ولكنها بذلك تقضي على نفسها بوصفها بروليتاريا وتقضي على جميع الفوارق الطبقية وجميع التضادات الطبقية ، وتهدم بالتالي الدولة بوصفها دولة . ان المجتمع الذي قام ولا يزال قائما حتى الآن في اطار التضادات الطبقية كان بحاجة الى الدولة ، اي الى منظمة للطبقة المستثمِرة ، بغية تأمين الظروف الخارجية اللازمة للانتاج ، ولا سيما بغية العمل بالقوة على استبقاء الطبقة المستثمَرة مقيدة بظروف الخضوع (الرق ، القنانة او التبعية الاقطاعية ، العمل المأجور) التي كان يتطلبها اسلوب الانتاج القائم .

واذا كانت الدولة فيما مضى قد مثلت المجتمع بأسره رسميا وجسدته في هيئة ، في جسم منظور ، فانها لم تقم بهذا الدور الا طالما كانت دولة الطبقة التي تمثل وحدها المجتمع بأسره في حينها : في الازمنة القديمة كانت دولة مالكي العبيد ـ مواطني الدولة ، وكانت في القرون الوسطى دولة النبلاء الاقطاعيين ، وهي في زمننا دولة البرجوازية . ولكن ، ما ان تصبح الدولة فعلا ممثلة المجتمع بأسره حتى تمسي ولا حاجة اليها . وحين لا تبقى طبقة اجتماعية ينبغي استبقاؤها في حالة الخضوع ، وحين تزول ، مع زوال السيطرة الطبقية والنضال في سبيل البقاء الناجم عن الفوضى الحالية في الانتاج ، الاصطدامات والنزاعات الناجمة عن هذا النضال ، فلن يبقى من ينبغي قمعه وردعه ولن تكون حاجة الى قوة خاصة لاجل القمع والردع ، اي الدولة . ان اول عمل تقوم به الدولة كممثلة حقيقية للمجتمع بأسره ـ وهو استملاك وسائل الانتاج باسم المجتمع ـ سيكون في الوقت نفسه آخر عمل مستقل تقوم به كدولة . ان تدخل سلطة الدولة في العلاقات الاجتماعية يغدو نافلا في ميدان بعد آخر ، ويتوقف من تلقاء ذاته . ومحل حكم الاشخاص تحل ادارة الاشياء وقيادة عمليات الانتاج . ان الدولة لا «تلغى» بل **تضمحل** . وعلى هذا الاساس يجب تقييم تعبير «الدولة الشعبية الحرة» * ، الذي كان له ما يبرر وجوده موقتا كوسيلة للتحريض والذي كان باطلا في آخر المطاف من الناحية العلمية . وعلى هذا الاساس يجب كذلك تقييم مطلب من يسمون بالفوضويين ، ونعني به مطلب الغاء الدولة بين عشية وضحاها .

---

* راجع **ماركس ، انجلس** . مختارات في اربعة اجزاء ، الجزء الثاني ، ص‌ص ٢٦٠ـ٢٦٥ ، ٢٧٤ـ٢٧٥ ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٦٨ . **الناشر** .

منذ ظهور اسلوب الانتاج الرأسمالي في مسرح التاريخ ، كان استملاك المجتمع جميع وسائل الانتاج يبدو في احيان كثيرة مثالا اعلى للمستقبل ، ضبابياً ، غامضاً الى هذا الحد او ذاك ، امام عيون افراد او شيع بكاملها . ولكنه لم يغد ممكناً ، لم يستطـــع ان يبرز كضرورة تاريخية الا حينما توافرت الشروط الفعلية لتطبيقـــه عمليا . انه ككل تقدم اجتماعي آخر ، يغدو ممكن التطبيق ، لا لمجرد الاقتناع بان وجود الطبقات مخالف للعدالة والمســـاواة وهكذا دواليك ، لا لمجرد ارادة الغاء الطبقات ، بل لتوافر شروط اقتصادية جديدة . ان انقسام المجتمع الى طبقتين ، مستثمِـــرة ومستثمَـرة ، مسيطرة ومظلومة ، قد كان النتيجة الحتمية لضعف تطور الانتاج في الماضي . فحيث لا يقدم العمل الاجتماعي الاجمالي الا كمية من المنتجات ما تكاد تفيض عما هو ضروري اطلاقاً لبقاء المجتمع ، وحيث يستوعب العمل ، بالتالي ، كل وقت الاغلبيـــة الكبرى من الافراد الذين يتألف منهم المجتمع ، او تقريباً كـــل وقتهم ، كان هذا المجتمع منقسماً بالضرورة الى طبقـــات . والى جانب هذه الاغلبيـــة الكبرى المنصرفة بوجـــه الحصر الى العمل القسري ، تتكون طبقة معفاة من العمل المنتج مباشرة ومكلفـــة بشؤون المجتمع العامة : ادارة العمل ، والشؤون السياسيـــة ، والقضاء ، والعلوم ، والفنون ، الخ .. ولذا كان قانون تقسيم العمل هو الذي يكمن في اساس انقسام المجتمع الى طبقات ، الامر الذي لا ينفي اطلاقاً استعمال العنف والسلب والحيلة والغش لدى تشكل الطبقات ؛ الامر الذي لا يمنع كذلك الطبقة المسيطرة ، بعـــد ان تستولي على السلطة ، عن توطيد وضعها على حساب الطبقـــات الكادحة ، وعن تحويل قيادة المجتمع الى استثمار للجماهير بصورة مشددة .

ولكن اذا كان للانقسام الى طبقات بعض ما يبرره تاريخياً ، فليس ذلك الا لفترة معينة ، الا في ظل اوضاع اجتماعية معينة . لقد اشترطته عدم كفاية الانتاج ، وسيكنسه تطور القوى المنتجة الحديثة الكامل . وبالفعل ، يفترض الغاء الطبقات الاجتماعية بلوغ درجة في التطور التاريخي يغدو معها وجود هذه الطبقة المسيطرة او تلك ، بله وجود كل طبقة مسيطرة على العموم ، وبالتالي انقسام المجتمع الى طبقات ، بقية من بقايا الماضي وظاهرة من الظواهر ولى زمنها . ان الغاء الطبقات يفترض ، اذن ، ان تطور الانتاج قد بلغ درجة لا يغدو معها استملاك طبقة من الطبقات الاجتماعية لوسائل الانتاج والمنتجات ــ وبالتالي للسيطرة السياسية واحتكار الثقافة والقيادة الفكرية ــ من الامور النافلة وحسب ، بل يغدو ايضاً عائقاً امام التطور الاقتصادي والسياسي والفكري ، وقد تم اليوم بلوغ هذه الدرجة . فان افلاس البرجوازية السياسي والفكري لم يبق تقريباً سراً عليها ، وافلاسها الاقتصادي يتكرر بانتظام كل عشر سنوات . وفي كل ازمة ، يختنق المجتمع تحت ضغط القوى المنتجة والمنتجات التي خلقها المجتمع نفسه والتي لم يعد يعرف كيف يستعملها . ويقف المجتمع عاجزاً امام هذا التناقض الاخرق : لا يستطيع المنتجون ان يستهلكوا لانه ينقص مستهلكون . ان قوة الامتداد والتوسع الملازمة لوسائل الانتاج الحديثة تحطم القيود التي كبل بها اسلوب الانتاج الرأسمالي هذه الوسائل . وخلاص وسائل الانتاج من هذه القيود هو الشرط التمهيدي الوحيد الضروري لتأمين تطور القوى المنتجة باستمرار وبسرعة متزايدة ابداً ، اي لتأمين تنامي الانتاج نفسه الى ما لا حد له . ولكن ليس ذلك كل ما في الامر . ان الاستملاك الاجتماعي لوسائل الانتاج لا يزيل فقط العقبات الاصطناعية التي ما تزال تغل الانتاج ، بل يضع حداً ايضاً لتبديد وتدمير القوى المنتجة والمنتجات ، اللذين يلازمان

الانتاج الحالي بصورة لا مناص منها واللذين يبلغان الذروة ابان الازمة . وفضلا عن ذلك ، يحتفظ هذا الاستملاك للمجتمع بكمية هائلة من وسائل الانتاج والمنتجات ، اذ يقطع على الطبقات السائدة حالياً وممثليها السياسيين دابر بذخهم وتبذيرهم الجنوني . ان بامكان الانتاج الاجتماعي ان يؤمن لجميع اعضاء المجتمع ، لا ظروف معيشة مادية تكفي تماماً وتتحسن يوماً بعد يوم وحسب ، بل ايضاً حرية تطوير وممارسة مواهبهم الجسدية والفكرية على نحو كامل ، وهذه الامكانية قد تحققت الآن لاول مرة وانها **موجودة** الآن فعلا * .

فما ان يتملك المجتمع وسائل الانتاج ، حتى يزول الانتاج البضاعي وتزول معه سيطرة المنتوج على المنتجين . ومحل الفوضى داخل الانتاج الاجتماعي ، يحل تنظيم واع منهجي . ويزول النضال في سبيل البقاء الفردي . واذ ذاك فقط يمكن القول ، بمعنى ما ، ان الانسان قد خرج نهائياً من عالم الحيوان ، واستبدل بشروط معيشته الحيوانية شروطاً انسانية فعلا . اذ

---

* ان بضعة ارقام قد تعطي فكرة تقريبية عما تتميز به وسائل الانتاج العصرية من قدرة هائلة على الامتداد والتوسع حتى تحت النير الراسمالي . فبموجب احدث حسابات جيفن ، بلغ مجمل جميع الثروات في بريطانيا العظمى وارلنده ، باعداد مبسطة :

في عام ١٨١٤ـ ٢٢٠٠ مليون جنيه سترليني ـ ٤٤ مليار مارك

في عام ١٨٦٥ـ ٦١٠٠ مليون جنيه سترليني ـ ١٢٢ مليار مارك

في عام ١٨٧٥ـ ٨٥٠٠ مليون جنيه سترليني ـ ١٧٠ مليار مارك

اما فيما يخص ابادة وسائل الانتاج والمنتوجات في زمن الازمات ، فقد تبين في المؤتمر الثاني للصناعيين الالمان (في ٢١ شباط ـ فبراير ـ ١٨٧٨ في برلين) ان الخسائر الاجمالية التي منيت بها **صناعة الحديد الالمانية** وحدها بلغت ابان الازمة الاخيرة ٤٥٥ مليون مارك .

ذاك ، ستخضع ظروف المعيشة التي تحيط بالناس والتي سيطرت عليهم من قبل ، لسيطرة ورقابة الناس الذين يصبحون للمرة الاولى اسياد الطبيعة بالفعل وعن وعي ، لانهم يصبحون اسياد اتحادهم هم في المجتمع . واذ ذاك سيطبقون بدراية تامة القوانين التي توجه نشاطهم الاجتماعي ، والتي كانت حتى الآن تقوم بوجه الناس كقوانين للطبيعة غريبة عنهم ومسيطرة عليهم ، وبالتالي سيسيطرون عليها . كما ان الشكل الذي ينتظم به الناس في مجتمع ـ وقد كان ينتصب في وجههم حتى الآن كانما فرضته عليهم الطبيعة والتاريخ ـ سيصبح حينذاك من صنع الناس ، وبدافع من مبادرتهم الحرة . والقوى الموضوعية ، الغريبة ، التي وجهت التاريخ حتى الآن ستخضع حينذاك لرقابة الناس . وحينذاك فقط سيصنع الناس تاريخهم بانفسهم بدراية تامة ، وحينذاك فقط ستبدأ العوامل الاجتماعية التي يحركونها تحدث ، على الاغلب وبمقياس متعاظم على الدوام ، المفاعيل المقصودة . وهذه هي قفزة الانسانية من سيادة الضرورة الى سيادة الحرية .

وختاماً نوجز ببعض كلمات سير التطور الذي عرضناه .

١ ـ **مجتمع القرون الوسطى** : انتاج صغير فردي . وسائل انتاج مكيفة للاستعمال الفردي وبالتالي بدائية ، صغيرة ، محدودة المفعول . انتاج للاستهلاك المباشر ، اما لاستهلاك المنتج ، واما لاستهلاك سيده الاقطاعي . وفقط حيث يتوافر فائض من المنتجات على الاستهلاك المباشر ، يعرض هذا الفائض للبيع ويدخل في التبادل ؛ الانتاج البضاعي في خطواته الاولى ، ولكنه يحوي ، حتى في ذلك الوقت ، بذرة **فوضى الانتاج الاجتماعي** .

٢ ـ **الثورة الرأسمالية** : انقلاب في الصناعة ، اولا عن طريق التعاون البسيط والمانيفاكتورة . مركزة وسائل الانتاج في

مشاغل كبيرة بعد ان كانت مشتتة ، مبعثرة ، اي تحويل وسائل الانتاج الفردية الى وسائل اجتماعية ـ تحويل لا يمس شكل التبادل ابداً ، وبالتالي بقاء اشكال التملك السابقة . ويظهر **الراسمالي** : انه مالك وسائل الانتاج ، ولذا فهو الذي يستملك المنتجات ويجعلها بضائع . ويغدو الانتاج عملا اجتماعيا ؛ غير ان تبادل المنتجات ، ومعه تملكها ، يظلان عملين فرديين اي يقوم بهما الافراد : **يستملك الراسمالي الفردي منتوج العمل الاجتماعي** . وهذا تناقض اساسي ، وينبوع جميع التناقضات التي يتحرك المجتمع الحالي في اطارها والتي تتضح بجلاء خاص في الصناعة الكبيرة .

أ ـ انفصال المنتج عن وسائل الانتاج . الحكم على العامل بالعمل بالاجرة مدى الحياة . **تضاد بين البروليتاريا والبرجوازية** .

ب ـ ازدياد بروز وفعل القوانين التي تسيطر على الانتاج البضاعي . صراع المزاحمة بلا رادع . **تناقض بين التنظيم الاجتماعي في كل مصنع بمفرده وبين الفوضى الاجتماعية في مجمل الانتاج** .

ج ـ من جهة ، تحسين الآلات ، وقد جعلته المزاحمة قانوناً الزامياً على كل صناعي ويعني ، في الوقت نفسه ، استبعاد العمال من المصانع بصورة متزايدة على الدوام : **نشوء جيش صناعي احتياطي** . ومن جهة اخرى ، توسيع الانتاج الى ما لا حد له ، وقد جعلته المزاحمة قانوناً الزامياً ايضاً على كل صناعي . ومن الجهتين ، تطور القوى المنتجة تطوراً لم يسمع بمثله من قبل ، زيادة العرض على الطلب ، فيض في الانتاج ، اكتظاظ الاسواق ، ازمات تتكرر كل عشر سنوات ، حلقة مفرغة : **هنا ، فيض من وسائل الانتاج والمنتجات ، وهناك ، فيض من عمال** بلا عمل وبلا وسائل للعيش . غير ان هذين الرافعين للانتاج وللرفاهية

الاجتماعية لا يمكن لهما ان يجتمعا ، لان شكل الانتاج الرأسمالي يمنع القوى المنتجة عن العمل ، والمنتجات عن التبادل ، الا اذا تحولت اولا الى رأسمال ــ الامر الذي يحـــول دونه فيضهـــا بالذات . ويبلغ هذا التناقض حد الخرافة : **يتمرد اسلوب الانتاج على شكل التبادل** . ويتجلى بالتالي عجـــز البرجوازية عن ادارة قواها المنتجة الاجتماعية بعد اليوم .

د ــ الاعتراف جزئياً بطابع القوى المنتجة الاجتماعي ، وفرض هذا الاعتراف على الرأسماليين انفسهم ؛ استملاك المؤسســـات الكبرى للانتاج والمواصلات من قبل **شركات مساهمة** اولا ، ثـــم من قبل التروستات ، ثم من قبل **الدولـــة** ايضاً . ويتضـــح ان البرجوازية غدت طبقـــة زائـــدة ، اذ ان المستخدمين الاجراء يقومون الآن بجميع وظائفها الاجتماعية .

٣ ــ **الثورة البروليتارية** ، حـــل التناقضـــات : تستـــولي البروليتاريا على السلطة الاجتماعية ، وبواسطة هذه السلطة تحول وسائل الانتاج الاجتماعية المنزلقة من ايدي البرجوازية ، الى ملكية المجتمع بأسره . وبهذا العمل تحرر وسائل الانتاج من كل ما كانت تتصف به بوصفها رأسمالا ، وتطلق لطابعها الاجتماعي حرية التطور الكاملة . ومن الآن وصاعداً يصبح من الممكن تنظيم الانتاج الاجتماعي وفق برنامج موضوع سلفاً . ان تطور الانتاج يجعل من استمرار وجود الطبقات الاجتماعية المختلفة ظاهرة ولى زمنها . ومع زوال فوضى الانتاج الاجتماعي ، تزول سلطة الدولة السياسية . ويغدو الناس في آخر الامر اسياد كيانهـــم الاجتماعي ، وبهذا يصبحون اسياد الطبيعة ، اسياد انفسهم ــ احراراً .

ان الرسالة التاريخية الموضوعة امام البروليتاريا الحالية هي القيام بهذا العمل الذي يحرر العالم . اما رسالة الاشتراكية العلمية التي هي التعبير النظري عن الحركة البروليتارية ، فهي تحليل شروط هذا الانقلاب التاريخية وتوضيح طابعه الخاص ، وحمل الطبقة المدعوة الى القيام بهذا العمل ، الطبقة المظلومة اليوم ، على ادراك ظروف عملها وطبيعته ادراكاً تاماً .

كتبه انجلس في كانون الثاني ـ النصف الاول من آذار ١٨٨٠ . صدر في مجلة «La Revue socialiste» ، الاعداد ٣ ، ٤ ، ٥ ؛ ٢٠ آذار ، ٢٠ نيسان ، ٥ ايار ١٨٨٠ ، وصدر بكراس على حدة باللغة الفرنسية : F. Engels. «Socialisme utopique et socialisme scientifique». Paris, 1880

يصدر حسب نص الطبعة الالمانية عام ١٨٩١

ملاحظات

١ ـ **اللاساليون والايزيناخيون** ، حزبان في الحركة العمالية الالمانية في الستينيات ومستهل السبعينيات من القرن التاسع عشر .

اللاساليون ، انصار واتباع الاشتراكي البرجوازي الصغير الالماني فرديناند لاسال ، واعضاء اتحاد العمال الالمان العام الذي تاسس في عام ١٨٦٣ .

الايزيناخيون ، اعضاء حزب العمال الاشتراكي‌الديموقراطي الالماني الذي تاسس في عام ١٨٦٩ في المؤتمر التاسيسي في ايزيناخ . كان اوغست بيبل وولهلم ليبكنخت ، المتاثران بافكار ماركس وانجلس ، زعيمي الايزيناخيين .

ومن جراء نهوض الحركة العمالية واشتداد اعمال القمع الحكومية ، اتحد الحزبان في عام ١٨٧٥ في مؤتمر غوتا في حزب العمال الاشتراكي الالماني ، الذي كان اللاساليون يمثلون فيه الجناح الانتهازي . ـ ص٥ .

٢ ـ «Vorwärts» («فورفارتس» ـ «الى الامام») ، لسان الحال المركزي لحزب العمال الاشتراكي الالماني بعد مؤتمر غوتا التوحيدي . صدرت في ليبزيغ من ١٨٧٦ الى ١٨٧٨ . ـ ص ٦ .

٣ ـ **المارك** ، المشاعة الالمانية القديمة . تحت هذا الاسم ، اعطى انجلس في ملحق للطبعة الالمانية الاولى من «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» عرضا موجزا لتاريخ الفلاحين الالمان منذ الازمنة القديمة . ـ ص ٧ .

٤ ـ **العجزية** Agnosticisme **(اللاادرية ، الانكارية)** (من اليونانية A ـ محروم ، لا ، و gnosis ـ معرفة) ، مذهب مثالي يزعم انه تستحيل معرفة العالم ، وان العقل البشري محدود ، وعاجز عن معرفة اي شيء يقع

خارج احساساته . تتجلى العجزية باشكال مختلفة : بعضهم يعترف بالوجود الموضوعي للعالم المادي ولكنه ينكر امكانية معرفته ؛ وبعض آخر ينكر وجود العالم المادي باعتبار ان الانسان ، حسب زعمه ، عاجز عن معرفة ما اذا كان يوجد شيء ما خارج احساساته . ــ ص ٩ .

٥ ــ **الكلامي** Scolastique (السكولاستي) ، ممثل الفلسفة الكلامية (السكولاستية) ، وهي فلسفة دينية سادت في القرون الوسطى ، وتميزت باقصى التجريد وكامل الانفصال عن الواقع الحي ، وحاولت ان تعلل وتدعم عقائد الكنيسة بشتى احابيل المنطق . ــ ص ٩ .

٦ ــ **اللاهوت** Théologic (وتعني حرفيا عن اليونانية : التعليم عن الله) ، مذهب ديني يحاول ان يضع في منهج ويعلل «علميا» الاخلاق والعقائد والطقوس الدينية . ــ ص ٩ .

٧ ــ **الاسمية** Nominalisme ، تيار في فلسفة القرون الوسطى يزعم ان المفاهيم العامة ليست الا مجرد اسماء لاشياء بمفردها . خلافا للواقعيين من القرون الوسطى ، كان انصار مذهب الاسمية ينكرون وجود مفاهيم كمفاهيم النماذج المسبقة والمصادر الخلاقة للاشياء . وهكذا كانوا يقرون باولية الشيء وثانوية المفهوم . وبهذا المعنى ، كان مذهب الاسمية اول تعبير عن المادية في القرون الوسطى . ــ ص ٩ .

٨ ــ **الاصول المتماثلة** Homéoméries) homéo ــ متماثلة ، méries ــ اصول) ، هي ، حسب مذهب الفيلسوف الاغريقي انكساغوراس ، جزئيات مادية محددة كيفيا ومتناهية الصغر ، وتتميز بقابلية الانقسام الى ما لا نهاية له . كان انكساغوراس يعتبر ان الاصول المتماثلة كانت السبب الاول لكل ما هو موجود وان كل تنوع الاشياء ينجم عن تجمعها . ــ ص ١٠ .

٩ ــ **التأليه الشخصي** ، Theisme ، مذهب فلسفي ديني يقر بوجود الاله كشخص ، ككائن عاقل فوق الطبيعة ، وخالق الكون . وحسب هذا المذهب ، يتدخل الاله بنشاط في حياة الطبيعة والمجتمع . ــ ص ١٢ .

١٠ـ **التأليه السببي** (او التاليـــه الطبيعي) Deisme ، مذهب ديني فلسفي يقر بوجود اله بوصفه سببا اوليا عاقلا ، غير شخصي ، لوجود الكون ، ولكنه ينفي تدخله في حياة الطبيعة والمجتمع .ـ ص ١٢ .

١١ ـ كارل ماركس وفريدريك انجلس «العائلة المقدسة» . فرانكفورت على الماين ، ١٨٤٥ ، ص ص ٢٠١ـ٢٠٤ .ـ ص١٢ .

١٢ـ المقصود هنا المعرض الصناعي والتجاري العالمي الاول ، الذي انعقد في لندن من ايار (مايو) الى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٥١ .ـ ص ١٣ .

١٣ـ **جيش الخلاص** ، منظمة دينية خيرية رجعية أسسها في انجلترا الواعظ بوتس في عام ١٨٦٥ ثم وسعت نشاطهـــا الى بلدان اخرى (اتخذت اسمها هذا في عام ١٨٨٠ بعد اعادة تنظيمها حسب الشكل العسكري) . حظيت هذه المنظمة بكبير التاييد من البرجوازية ، فقامت بالدعايـة الدينية على نطاق واسع ، وانشأت شبكة كاملة من المؤسسات الخيرية بغية صرف الجماهير الكادحة عن النضال ضد المستثمرين . لجا بعض وعاظها الى الديماغوجية الاجتماعيـــة والى التنديد الظاهري بانانيـــة الاغنياء .ـ ص ١٣ .

١٤ـ المقصـــود هنـــا مؤلـــف لابلاس «Traité de mécanique céleste» («مقالة في الميكانيك السماوي») . صدرت الطبعة الاولى منها في باريس في خمسة مجلدات من عام ١٧٩٩ الى عام ١٨٦٥ .ـ ص ١٤ .

١٥ـ **الروحانية** Spiritualisme ، مذهب مثـــالي يقول ان الروح هي السبب الاول للعالم .ـ ص ١٧ .

١٦ـ اطلق اسم «**الثورة المجيدة**» في علـم التاريخ البرجوازي البريطاني على الانقلاب الذي وقـــع في عـــام ١٦٨٨ وادى الى الاطاحـــة بسلالة ستيوارت في انجلترا واقام نظاما ملكيا دستوريا برئاسة وليام اورانج (ابتداء من عـــام ١٦٨٩) ، قائمـــا على مساومـــة بين الاريستقراطيين مالكي الاراضي والبرجوازية الكبيرة .ـ ص ٢٢ .

١٧ ـ **حرب الوردتين** (١٤٥٥ـ١٤٨٥) ، حـــرب بين ممثلي عائلتين من الاقطاعيين الانجليز كانتا تتنافسان على التاج ، هما عائلة يورك التي كان على شعارها رسم وردة بيضاء ، وعائلـــة لنكاستر التي كان على شعارها رسم وردة ارجوانية . التف حول آل يورك قسم من الاقطاعيين

الكبار في الجنوب الذي كان اكثر تطورا في الميدان الاقتصادي ، والفرسان وسكان المدن . اما آل لنكاستر ، فقد دعمتهم الاريستقراطية الاقطاعية من كونتيات الشمال . ادت الحرب الى القضاء كليا تقريبا على العائلات الاقطاعية القديمة وانتهت باعتلاء سلالة جديدة دست الحكم هي سلالة تيودور ، التي اقامت الحكم المطلق في انجلترا . ـ ص ٢٢ .

١٨ ـ **الفلسفة الكارتيزية** ، مذهب اتباع الفيلسوف الفرنسي من القرن السابع عشر ديكارت (باللاتينية Cartesius ـ كارتيزيوس) الذين استخلصوا من فلسفته استنتاجات مادية . ـ ص ٢٤ .

١٩ ـ يقصد انجلس «اعلان حقوق الانسان والمواطن» الذي اقرته الجمعية التاسيسية في ١٧٨٩ والذي اورد المبادئ السياسية للنظام البرجوازي الجديد . وقد ادرج الاعلان في الدستور الفرنسي لعام ١٧٩١ . ـ ص ٢٥.

٢٠ ـ **القانون المدني** Code civil ، احد القوانين الخمسة التي سنت في فرنسا من ١٨٠٤ الى ١٨٢٠ في عهد نابوليـــون الاول (ومن هنــا اصبح من المألوف القول عن القـــانون المدني بانه قانون نابوليـــون) والتي كانت بمثابة تصنيف عام للحق البرجوازي . نعت انجلس القانون المدني الصادر في عام ١٨٠٤ بانه مثال كلاسيكي لقوانين المجتمع البرجوازي . ـ ص ٢٥ .

٢١ ـ المقصود هنا اصلاح القانون الانتخـــابي الذي اقره مجلس العمـــوم الانجليزي في عام ١٨٣١ وصادق عليه مجلس اللوردات نهائيا في حزيران (يونيـــو) ١٨٣٢ . كان الاصلاح موجهـــا ضد الاحتكار السيـــاسي للاريستقراطية العقارية والمالية ، ففتح الطريق الى البرلمان امام ممثلي البرجوازية الصناعية . اما البروليتاريا والبرجوازية الصغيرة اللتان كانتا القوة الرئيسية في النضال من اجل الاصلاح ، فقد خدعتهما البرجوازية الليبرالية ، ولم تنالا الحقوق الانتخابية . ـ ص ٢٨ .

٢٢ ـ **قوانين الحبوب** ، اقرها البرلمان الانجليزي في عام ١٨١٥ في مصلحة كبار اسياد الاراضي وفرض رسوما جمركية عالية على استيراد الحبوب . اثرت قوانين الحبوب تاثيرا مرهقا للغاية في أوضاع فقراء السكان ، ولم تكن كذلك في مصلحة البرجوازية الصناعية لانها ادت الى ارتفاع ثمن قوة العمل وانخفاض قدرة السوق الداخلية وعرقلة تطور التجـــارة الخارجية . في اواخر الثلاثينيات ، نظمت البرجوازية الانجليزية عصبة

ضد قوانين الحبوب برئاسة كوبدن وبرايت . خلال جملة من السنين ، ناضلت العصبة من اجل الغاء قوانين الحبوب . الغيت هذه القوانين في عام ١٨٤٦ . ـ ص ٢٨ .

٢٣ ـ كان **ميثاق الشعب** Charter يتضمن مطالب الشارتيين ، وقد نشر في ٨ ايار (مايو) ١٨٣٨ بصفة مشروع قانون لاجل تقديمه الى البرلمان . وكان يتالف من ست بنود : الحق الانتخابي العام (لاجل الرجال ممن بلغوا الحادية والعشرين من العمر) ، الانتخابات السنوية الى البرلمان ، الاقتراع السري ، مساواة الدوائر الانتخابية ، الغاء شرط النصب المالية بالنسبة للمرشحين الى انتخابات البرلمان ، دفع رواتب للنواب . قدم الشارتيون ثلاث عرائض بطلب الموافقة على ميثاق الشعب فرفضها البرلمان في ١٨٣٩ و١٨٤٢ و١٨٤٩ . ـ ص ٢٨ .

٢٤ ـ **عصبة الغاء قوانين الحبوب** ، منظمة للبرجوازية الصناعية الانجليزية ، اسسها في عام ١٨٣٨ الصناعيان كوبدن وبرايت من مانشستر . طالبت العصبة بحرية التجارة التامة ، وسعت الى الغاء قوانين الحبوب (راجع الملاحظة رقم ٢٢) بغية تخفيض اجور العمال واضعاف المواقع الاقتصادية والسياسية للاريستقراطية العقارية . حاولت العصبة في نضالها ضد ملاكي الاراضي ان تستخدم الجماهير العمالية . ولكن عمال بريطانيا الطليعيين كانوا في ذلك الوقت قد سلكوا سبيل حركة عمالية مستقلة ، منظمة سياسيا (الشارتية) . بعد الغاء قوانين الحبوب ، حلت العصبة نفسها . ـ ص ٢٩ .

٢٥ ـ **الاخ جوناتان** ، لقب ساخر اطلقه الانجليز على الاميركيين الشماليين ابان حرب انجلترا ضد اميركا الشمالية المطالبة بالاستقلال (١٧٧٥ـ ١٧٨٣) . ـ ص ٢٩ .

٢٦ ـ Revivalism (**«اليقظة»**) ، تيار في الكنيسة البروتستانتية نشأ في انجلترا في النصف الاول من القرن الثامن عشر ثم انتشر في اميركا الشمالية. حاول انصاره توطيد وتوسيع نفوذ الدين المسيحي عن طريق المواعظ الدينية وتاليف جمعيات (طوائف) جديدة من المؤمنين . ـ ص ٢٩ .

٢٧ ـ المقصود هنا الاصلاح البرلماني الذي اجرته في عام ١٨٦٧ حكومة دربي ـ ديزرايلي المحافظة . نتيجة لاصلاح ١٨٦٧ ، ازداد عدد

الناخبين في انجلترا اكثر من ١٠٠٪ ، كما نال قسم معين من العمال الاكفاء حق الانتخاب . ـ ص ٣٢ .

٢٨ ـ **الويغ والتوري** ، حزبان سياسيان في انجلترا ظهرا في السبعينيات والثمانينيات من القرن السابع عشر . كان حزب الويغ يعبر عن مصالح الاوساط المالية والبرجوازية التجارية وكذلك عن مصالح قسم من الاريستقراطية المتبرجزة . وقد كان الويغ اساسا للحزب الليبيرالي (حزب الاحرار) . اما حزب التوري فكان يمثل كبار ملاكي الاراضي والاوساط العليا من رجال الكنيسة الانجليكالية ، وفيما بعد ارسى بداية حزب المحافظين . كان حزب الويغ وحزب التوري يتعاقبان على الحكم . ـ ص ٣٢ـ٣٣ .

٢٩ ـ **اشتراكية الكراسي** Katheder sozialismus ، اتجاه من الاتجاهات في الايديولوجية البرجوازية في العقود الثامن والتاسع والعاشر من القرن التاسع عشر ، كان ممثلوه ـ وفي المقام الاول منهم بروفسورات الجامعات الالمانية ـ يعلمون من الكراسي (بالالمانية Katheder) الجامعية الاصلاحية البرجوازية على انها الاشتراكية . وقد زعم ممثلو اشتراكية الكراسي (فاغنر وشمولر وبرلتانو وزومبات وغيرهم) ان الدولة مؤسسة فوق الطبقات ، بوسعها ان توفق بين الطبقات المتعادية وتطبق «الاشتراكية» تدريجيا ، دون ان تمس مصالح الرأسماليين . وقد اقتصر برنامج اشتراكية الكراسي على المطالبة بتنظيم ضمان العمال من المرض والاصابات ، وبتطبيق بعض الاجراءات في ميدان التشريع الصناعي ، الخ . وكان القصد منه صرف العمال عن النضال الطبقي . كانت اشتراكية الكراسي احد المصادر الفكرية للتحريفية . ـ ص ٣٣ .

٣٠ ـ **ايست‌اند** East-End ، القسم الشرقي من لندن ، دائرة احياء العمال . ـ ص ٣٦ .

٣١ ـ حسب نظرية روسو ، كان الناس البدائيون يعيشون في حالة طبيعية كانوا فيها جميعهم متساوين . وقد اشترط ظهور الملكية الخاصة وتطور التفاوت في التملك انتقال الناس من الحالة الطبيعية الى الحالة المدنية وادى الى تشكل الدولة القائمة على عقد اجتماعي . ولكن تطور التفاوت السياسي يقود فيما بعد الى مخالفة العقد الاجتماعي والى نشوء حالة

جديدة هي حالـــة الاستبداد . وان هذه الحالـــة الاخيرة انمـــا يجب ان تقضي عليها الدولة الحكيمـــة القائمـــة على عقد اجتماعي جديد . ــ ص ٤٠ .

٣٢ ــ **المعمدانيون** ، انصار شيعة دينية نشات في المانيا وسويسرا في القرن السادس عشر . ابان حرب الفلاحين في سنتي ١٥٢٤ و١٥٢٥ انضم المعمدانيون ، ــ وكان يهيمن بينهم الفلاحون والحرفيون وصغار التجار ، ــ الى الجناح الاوفر ثوريـــة من الحركة ، الذي كان يتزعمه تومـــاس مونزر . ــ ص ٤٠ .

٣٣ ــ يقصد الجلس «السوائيين الحقيقيين» او «الديغـّر» («الحفارين») ، وهم ممثلو تيار يساري متطرف في مرحلة الثورة البرجوازية الانجليزية في القرن السابع عشر . كان «الحفارون» يعربون عن مصالح الفئـات الفقيرة في الريف والمدينة ، وقد طالبوا بتصفية الملكية الخاصة للارض ، وروجوا افكار الشيوعية السوائية وحاولوا تحقيق هذه الافكار في الواقع العملي بحراثة الاراضي المشاعية بصورة جماعية . ــ ص ٤٠ .

٣٤ ــ يقصد الجلس هنا مؤلفي ممثلي الشيوعية الطوبوية ، تومـــاس مور («الطوبوية» ، الصادر عام ١٥١٦) وكامبانيلا («مدينة الشمس» ، الصادر عام ١٦٢٣) . ــ ص ٤١ .

٣٥ ــ **عهد الارهاب** ، مرحلة ديكتاتورية اليعاقبة الثورية الديموقراطيـــة (حزيران ــ يونيو ــ ١٧٩٣ ــ تموز ــ يوليو ــ ١٧٩٤) ؛ وفيها لجا اليعاقبة الى الارهاب الثوري للرد على ارهاب الجيروندييين والملكيين المعـــادي للثورة .

الديريكتوار (كان يتالف من خمسة مدراء يعاد انتخاب واحـد منهم كل سنة) ، هيئة قيادية للسلطة التنفيذية في فرنســا ، تاسست وفقا لدستور عام ١٧٩٥ الذي اقر بعد سقوط ديكتاتورية اليعاقبة الثورية في عام ١٧٩٤ . دام الديريكتوار حتى الانقلاب الذي قام بـه بونابرت في عام ١٧٩٩ . دعم الديريكتوار نظام الارهاب ضد القوى الديموقراطية ودافع عن مصالح البرجوازية الكبيرة . ــ ص ٤٢ .

٣٦ ــ المقصود هنا شعار الثورة البرجوازية الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر : «الحرية . المساواة . الاخاء» . ــ ص ٤٣ .

٣٧ ـ **نيو-لانارك** (New-Lanark) ، مصنع لغزل القطن في جوار مدينة لانارك الاسكتلندية . بنى في عام ١٧٨٤ مع بلدة صغيرة بقربه . ـ ص ٤٤ .

٣٨ ـ في ٣١ آذار (مارس) ١٨١٤ ، دخلت الى باريس الجيوش الحليفة للبلدان المشتركة في الحلف السادس المعادي لفرنسا (روسيا ، النمسا ، انجلترا ، بروسيا وغيرها من الدول) . فسقطت امبراطورية نابوليون ، واضطر نابوليون نفسه بعد عزله الى الذهاب الى المنفى في جزيرة البا فقام في فرنسا العهد الاول لعودة ملكية بوربون .

المئة يوم ، مرحلة بعث امبراطورية نابوليون ؛ وقد دامت من يوم عودته من المنفى في جزيرة البا الى باريس في ٢٠ آذار (مارس) ١٨١٥ حتى خلعه للمرة الثانية في ٢٢ حزيران (يونيو) من العام نفسه بعد هزيمته في واترلو . ـ ص ٤٨ .

٣٩ ـ في ١٨ حزيران (يونيو) ١٨١٥ هزمت القوات الانجلو-هولندية بقيادة ويلينغتون والجيش البروسي بقيادة بلوخر جيش نابوليون في جوار **واترلو** (بلجيكا) . اضطلعت معركة واترلو بالدور الحاسم في حملة عام ١٨١٥ اذ قررت سلفا سقوط امبراطورية نابوليون . ـ ص ٤٨.

٤٠ ـ في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٣٣ ، انعقد في لندن برئاسة اوين مؤتمر الجمعيات التعاونية والنقابات ؛ وفيه تاسس رسميا **الاتحاد الوطني الكبير للمهن (للصناعات) في بريطانيا العظمى وارلنده** ؛ وفي شباط (فبراير) ١٨٣٤ ، تمت المصادقة على النظام الداخلي للاتحاد . كان اوين يعتقد انه يجب على الاتحاد ان يأخذ بيده ادارة الانتاج وتحويل المجتمع تحويلا تاما بطريقة سلمية . وسرعان ما مني هذا البرنامج الطوبوي بالاخفاق . لقي الاتحاد مقاومة قوية من جانب المجتمع البرجوازي والدولة البرجوازية فانحل في آب (اغسطس) ١٨٣٤ . ـ ص ٥٤.

٤١ ـ الاسواق لتبادل منتوجات العمل بصورة عادلة او اسواق العمل اسستها جمعيات العمال التعاونية في مختلف مدن انجلترا . واول سوق من هذا النوع اسسها روبرت اوين في لندن في ايلول (سبتمبر) ١٨٣٢ ودامت حتى اواسط ١٨٣٤ . ـ ص ٥٤ .

٤٢ ـ ابان ثورة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ ، حاول برودون تنظيم مصرف للتبادل . وقد اسس مصرف الشعب (Banque du peuple) في باريس في ٣١ كانون

الثاني (يناير) ١٨٤٩ . دام هذا المصرف زهاء شهرين ، وعلى الورق فقط : فقد مني بالافلاس قبل ان يبدأ عمله بانتظام ، وأغلق في مستهل نيسان (ابريل) . ـ ص ٥٤ .

٤٣ ـ **العهد الاسكندري** لتطور العلم يمتد من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن السابع بعد الميلاد . ويعود اسمه الى مدينة الاسكندرية المصرية التي كانت آنذاك من أهم المراكز الاقتصادية والتجارية العالمية . وفي ذلك العهد ازدهرت الرياضيات والميكانيك (اوقليدوس وارخميدوس) والجغرافية ، وعلم الفلك ، وعلم التشريح الجسماني والفيزيولوجيا ، وغيرها من العلوم . ـ ص ٥٧ .

٤٤ ـ من أهم الاكتشافات الجغرافية ، اكتشاف كريستوفوروس كولومبس لاميركا في عام ١٤٩٢ ، واكتشاف البرتغالي فاسكو دي غاما الطريق البحري الى الهند في عام ١٤٩٨ . ـ ص ٧٥ .

٤٥ ـ المقصود هنا الحروب التي وقعت في القرنين السابع عشر والثامن عشر بين كبريات الدول الاوروبية من اجل السيطرة في ميدان التجارة مع الهند واميركا ومن اجل الاستيلاء على اسواق المستعمرات . في البدء كانت انجلترا وهولنده البلدين المتنافسين الاساسيين (كانت الحروب الانجليزية الهولندية في ١٦٥٢ ـ ١٦٥٤ وفي ١٦٦٤ ـ ١٦٦٧ وفي ١٦٧٢ ـ ١٦٧٤ حروبا تجارية نموذجية) . وفيما بعد دارت رحى الصراع الفاصل بين انجلترا وفرنسا . وكانت انجلترا هي التي خرجت ظافرة من هذه الحروب كافة ؛ وفي اواخر القرن الثامن عشر كانت قد حصرت في يديها التجارة العالمية كلها تقريبا . ـ ص ٧٥ .

٤٦ ـ راجع ماركس ، «رأس المال» ، المجلد ١ ، ١٩٤٩ ، ٦٥١ . ـ ص ٧٧ .

٤٧ ـ Seehandlung (التجارة البحرية) ، شركة تسليف تجارية انشئت في بروسيا ، في عام ١٧٧٢ . كانت هذه الشركة تتمتع بجملة من الامتيازات الحكومية ، وكانت تمنح الحكومة قروضا كبيرة ، مؤدية في الواقع دور صاحب مصرف وسمسار في الحقل المالي . في عام ١٩٠٤ ، جرى تحويلها رسميا الى مصرف الدولة البروسية . ـ ص ٨٢ .

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ٢١
موسكو ـ الاتحاد السوفييتي